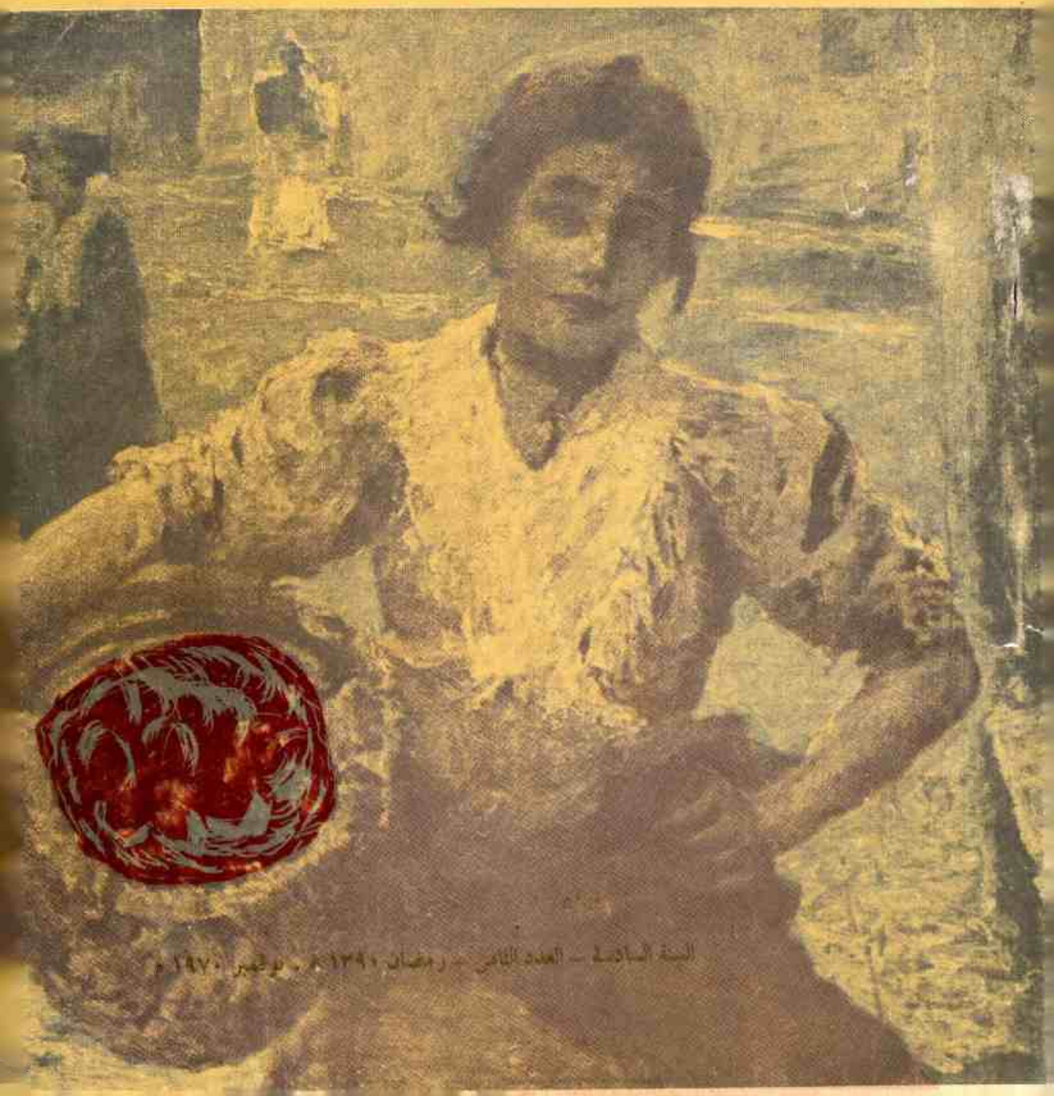
الرواد

مجلة تعنى بشئون الأدب والفكر

تصدر عن الادارة العامة للإرشاد القومي بوزارة التربية والإرشاد القومي



السنة السادسة – العدد الثامن – رمضان ١٣٩٠ هـ – نوفمبر ١٩٧٠ م

عمر أبو بكر المريشي

في هذا العدد

المعرض الوطني للجهاد	٦
في ذكرى اكتوبر السادسة	١٥
جريمة الجرائم . . إبادة الجماعات البشرية	٢٠
التناقض الثقافي في الغرب	٢٦
هجوم جورج أورويل على المذهب الشمولي	٢٩
الشهيد النؤوم « صفوان بن المعطل »	٣٥
المهاتما غاندي	٤٠
طرابلس في العهد العثماني الأول	٤٨
ترنيمة المهد « قصة قصيرة »	٥٢
أربع مسرحيات لتنيس وليامز	٦٦
دراسات في الأدب العربي والتاريخ	٧٤
أمير شعراء تونس	٨٠
واجبات المواطن الصالح ومسئولياته	٩٦
هتلر وفلسفة العنف مع اليهود	١٠٨
الرتيلة « قصة قصيرة »	١١٢

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الروّاد

شارع الشط . مبنى الادارة العامة للارشاد القومي
هاتف ٣٤٠٨١ – ٣٤٠٨٢

هيئة التحرير

رئيس التحرير نجم الدين الكيب

سكرتيرا التحرير بشير الهاشمي وعبد السلام قدربوه

الصيد ابوديب محرر

يوسف القويري محرر

الاعداد الفني عبد السلام محمد مسعود

صورة الغلاف

« بائعة الخضار »

لوحة للفنان العالمي اميليو غولا ١٨٥١-١٩٢٣م

حسام يوسف الكوني

المعرض الوطني للجهاد

وبداية ازاحة الغبار عن تاريخنا

بقلم : بشير الهاشمي

مع احتفالات الجمهورية العربية الليبية بعيد ثورتنا الوطنية الظافرة تميزت ظاهرة رائعة وبادرة حسنة كانت موضع الثناء والتقدير ، وهي إحياء ذكرى شهداء الجهاد الوطني ضد الاستعمار الطلياني الغاصب ، ولا شك أنها خطوة تؤكد الاعتراف بالجميل والتقدير للنضال الكبير والتضحيات الجليلة التي قدمها جيل المحاربين والمناضلين ضد الغزو ، حيث كانوا يواجهون بصدورهم الرصاص والحديد والنار ويقدمون



صورة لختم الجنرال تارديني يلتقي مدلولها مع أعمال الاستعمار الوحشية في ليبيا .



أرواحهم قرباناً للوطن .

وثورة سبتمبر التي جاءت لترفع القناع المزيف عن وجه ليبيا الحقيقي ولتعيد له إشراقته وضياءه كان من الطبيعي أن تعطي لذكرى شهدائنا الأبطال حقها من التقدير والاعتراف والذكر الحسن بعد أن ظلت طيلة العديد من السنين تحت مهاترات التضليل والخداع وادعاء البطولات الزائفة .



الطائرة الايطالية التي أسقطت في شهر سبتمبر ١٩١٢ وهي أول طائرة أسقطت في تاريخ الحرب.

ومن وحي هذه البادرة كانت الخطوة الأولى التي انتهجتها الادارة العامة للآثار ولقيت المساندة والمؤازرة من وزارة التربية والارشاد القومي على إقامة معرض الجهاد الوطني وإعداده ليكون تعبيراً وطنياً أصيلاً منسجماً مع فرصة الشعب وبهجته بعيد ثورته المجيدة ومؤكداً عمق التلاحم والترابط النضالي لطلائع الأحرار في فجر سبتمبر الظافر مع تاريخ الجهاد الوطني في ليبيا .

والحق أن هذا المعرض أقيم بجهود عشرات من الجنود المجهولين من بينهم العديد من المواطنين الكرام الذين سارعوا بتقديم ما لديهم من وثائق وصور وألبسة ومعدات عسكرية وأسلحة عتيقة وآثار أخرى تتعلق بالنضال الوطني أو له صلة برجال الجهاد الكبار . والحق أيضاً أن المجال لا يسع إلى ذكر جميع من أسهموا بمبادراتهم الشخصية من أجل إعداد وتجهيز هذا المعرض التاريخي الهام الذي بقي فكرة رائعة تختمر في أعماق عدد من الاخوة العاملين في مجالات شئون الآثار ، وبقيت تقابل بالصد تارة ، والرفض والاهمال تارة أخرى ، حتى جاءت ثورة سبتمبر لتتيح لكل صاحب فكرة وطنية أن يقدم جهوده وأن يعمل بنفسه ، وعلى الثورة أن تفتح له الطريق .

وقد سارع عدد من الاخوة من موظفي مصلحة الآثار إلى إحياء هذه الفكرة وإنعاشها والعمل من أجلها والتضحية في سبيل تحقيقها حتى تكون منسجمة مع بهجة الذكرى الأولى لثورتنا ولتكون كمتحف جديد

يضاف إلى المتاحف الأخرى التي تشرف عليها الادارة العامة للآثار .

والحديث عن المتاحف هو حديث عن التاريخ ، حديث عن حضارة الانسان ومعاناته الأرض وهو يحقق وجوده ، وهو حديث شيق وصعب في الوقت نفسه ، إنه ممتع لأنه ينقلنا إلى أجواء عميقة في القدم وإنه صعب لأنه تمثل لمراحل تحول وتطور مختلف الحضارات والعصور لا يسهل تحديدها في سطور ولا صفحات .

وحديثنا هذه المرة نقتصره على معرض الجهاد الوطني الذي يرصد في مجمله مرحلة نضالية خطيرة في تاريخ شعبنا ومعالم بارزة تؤكد أن الانسان العربي في ليبيا هو دوماً سليل نضال لا يلين وكفاح لايستكين .

ولعل من أروع المظاهر التي لفتت انتباهي خلال اتصالي بالاخوة موظفي مصلحة الآثار لمعرفة نشوء هذه الفكرة وتحقيقها ما يتمتعون به من روح الفريق التي تجمع بينهم وتوحد جهودهم فلا تشعر بأي اعتبار شخصي بينهم ، بل ان كلا منهم ينكر ذاته ولا يقر بجهده الشخصي ، وإنما يقول في بساطة إنها فكرتنا جميعاً وجهودنا جميعاً ، كنا نحملها لسنوات في قلوبنا ، وحاولنا خلال العهد البائد البغيض أن نعمل على تحقيقها حفاظاً لحق الجهاد ولتاريخ الوطن ، ولكن العهد المنهار كان يحارب كل فكرة وطنية تهدف إلى الكشف على نضال الشعب الحقيقي وأبطاله الحقيقيين ليكون التاريخ والذكر والتمجيد محتكراً لأشخاص بعينهم . حتى جاءت الثورة فوجدوا بغيتهم من التأييد والتشجيع .

ورغم كل أشكال التكتم التي يصرون عليها في ذكر جهودهم الشخصية ، فقد عرفت أن لجنة خاصة قد شكلت من موظفي مصلحة الآثار للاشراف على إعداد وتنظيم هذا المعرض وهذه اللجنة مكونة من الإخوة : محمد الأسطى ، وعيسى سالم الأسود ، ومحمود الصديق أبو حامد ، وعبد الوهاب عليوة ، وفتحي أيوب العزابى ، وأحمد الفساطوي .

وقد تحملت هذه اللجنة مسئولية الجهود المتواصلة والمتابعة اليومية التي لا تتحدد بساعات العمل الرسمية وإنما تتجاوز ساعات أخرى من النهار ووسعت اتصالاتها بمختلف الجهات والمناطق في أرض الجمهورية والسعي إلى العديد من الشخصيات التي لها صلة سواء بأشخاص المجاهدين أو ممن يعرف عنهم أن لهم محتويات تاريخية بحوزتهم .

وأمام هذا الاصرار لنكران الذات تركت أسئلتي واستفساراتي

الجاهزة ليكون حديثاً عفوياً مثل فكرتهم النبيلة ولنخوض غمار الموضوع بصفة شمولية ، وحدثوني عن نشوء هذه الفكرة والعمل على تحقيقها فقالوا:

لقد كانت فكرة إنشاء نواة معرض الجهاد الوطني من الخطوات التي رغبت المصلحة في تحقيقها استمراراً لأداء رسالتها العلمية والثقافية بروح الواجب ، وكان حلول الذكرى الأولى لثورة الفاتح من سبتمبر .. ثورة



استعراض لكتائب المجاهدين أمام قادتهم في جهة درنة يوم ٢٧-٤-١٩١٢ م.

أحفاد المجاهدين المناضلين الذين ثأروا لدماء هؤلاء المناضلين من الأجيال السالفة والذين ضحوا بحياتهم وما ملكت يمينهم في ظروف أقسى ما تكون الظروف التي تألبت فيها قوى الشر والظلم والغدر الاستعماري . لقد كانت ذكرى اندلاع الثورة مناسبة عظيمة لإبراز نواة المعرض لحيز الوجود التي قامت على جهود اختصاصي الآثار والمحفوظات التاريخية بالتعاون مع المواطنين من أسر الشهداء وغيرهم من أبناء الوطن ممن لديهم المصادر والمعلومات المتعلقة بمراحل النضال الليبي طوال السنوات الأولى من هذا القرن . وبالرغم من زحمة الأعمال والواجبات في أجهزة المصلحة فقد أمكن تنسيق المواد الأولى المتوفرة من الوثائق والتحف النادرة التي جمعت أو قدمت من المواطنين بإخلاص واعتزاز بتراث الجهاد . والكثير قد رأى النور لأول مرة .

كما كان للمصادر المطبوعة عن فقرات الجهاد سواء فيما يتعلق بالعدوان في السنوات الأولى وتأسيس الحكم الجمهوري الأول ، ثم الغدر والتنكر للمواثيق والعهود والمطالب الأساسية المشروعة واستئناف الجهاد والنضال إلى آخر مراحله . ودار المحفوظات التاريخية والاختصاصيون في أجهزة الآثار يذكرون بالتقدير ما وجدوه منذ البادرة الأولى في تنفيذ العمل من تعاون المواطنين في مختلف جهات الجمهورية . والمعرض في نواته الأولى يحوي العديد من الآثار والمخلفات الهامة لكبار المجاهدين أمثال رمضان السويحلي وعمر المختار وسليمان الباروني وسعدون والهادي كعبار وغيرهم ، كما يحوي العديد من الصور النادرة والأسلحة العتيقة والمخطوطات الخاصة بشئون المجاهدين .

وهذه لمحة عن أهم المحتويات والآثار الخاصة بعدد من قادة الجهاد العظيم .

رمضان السويحلي :

قيطان مسدس – سيف – أوسمة مهداة من السلطات العثمانية – وسام أهدي له من امبراطور ألمانيا في الحرب العالمية الأولى – حزام حامل للسيف – رسالة تعيين مدير زاوية المحجوب بتوقيع رمضان السويحلي .

كما توجد صورة مأخوذة عن نص إعلان السلطات الاستعمارية في جريدتها الرسمية عن منح مكافأة مالية لمن يسلم إليها المجاهد رمضان



سليمان الباروني مع المجاهدين في الجبل الغربي .

السويحلي أو قتله ومقدارها ٢٠٠٠٠ فرنك « عشرون ألف فرنك » وهي مأخوذة من قسم المحفوظات التاريخية .

عمر المختار :

رسالة خطية من المجاهد عمر المختار إلى القائد حسين بك الجويني – رسائل أخرى بتوقيعه إلى سليمان أبو ادريس أبو دجاجة – رسالة موجهة من عمر المختار إلى المجاهد الحاج مصطفى الجزيري وهو من المجاهدين .

ومن مقتنياته الخاصة عصاً معدنية ونظارة بيضاء .

أحمد الشريف :

بندقية من خرفة – ملاط للذخيرة – غدارة – سيف .

سليمان الباروني :

عباءة عمانية – مئزر عماني – طاقية من صنع عمان – سيف – طاقيتان عسكريتان – آلة تصوير وعلبتها – بدلة ميدان عسكرية – حمائل سيف – نياشين عثمانية عدد ٢ – نياشين معدنية من قتلى ضباط إيطاليين .

كما يحتوي على العديد من المخلفات الأخرى الشخصية الخاصة بالمجاهد الكبير .

سعدون

(خرج) للمجاهد محمد سعدون السويحلي – قيطان مسدس – ملاط لمحل الأسلحة – بندقية (دقرة من نوع أم حريبة) – جبة مفضضة .

وثيقة تحوي توقيع محمد سعدون قائد الجيوش الوطنية الاسلامية لترقية ضابط (ابراهيم الحاج محمد سنينه) .

كما يحتوي المعرض على مقتنيات أخرى تتعلق بالمجاهدين أحمد المريض والمبروك المنتصر الترهوني وأحمد السويحلي وعمر المنصوري ومحمد سيف المحمودي ويوسف بورحيل وقاسم بن تنتوش .

ويتضمن المعرض العديد من الوثائق الخطية الهامة ، من أبرزها نص قرار إعلان تأسيس أول جمهورية في ليبيا . ومن المخطوطات الأخرى منشور من الليبيين المهاجرين في تونس يحرضون ويؤازرون فيه مواطنيهم لمراحل النضال وهي مرسلة إلى عثمان القيزاني من مصطفى أفندي نور الدين بن حميدة وتوجد مخطوطة أخرى يحتوي رد القيزاني بإعلام وصول



المجاهد البنباشي حامد ظافر المدني .



الموقع الذي حوصر فيه شيخ المجاهدين عمر المختار في سلطنة ومراوة قرب قريته الحالية .

المناشير وتوزيعها ومن أهم وثائق الجهاد الوطني نص الاتفاق الموقع من قبل عدد من زعماء الجهاد الذين صمموا على مواصلة النضال ومقاومة العدوان بعد استسلام الحكومة التركية وانسحابها من المعركة وهو موقع من سليمان الباروني – أحمد السني – محمد سوف – أحمد البدوي الأزهري .

ومن الوثائق المتعلقة بالعدوان الاستعماري على ليبيا نص برقية من وزير الحربية « اسبينفاردي » إلى قائد الحملة العدوانية « الجنرال كانيفا » هذا نصها : « أولوية مطلقة إلى سعادة الجنرال كانيفا طرابلس افريقيا . يرجى من سعادتكم أخذ الاعتبار بالاضافة إلى عقوبة الاعدام للحائزين على الأسلحة من العرب وفيما إذا لن يكون هناك رد فعل كبير أن تنشروا إعلاناً بمصادرة أملاكهم لإرغام الأسر على الخضوع خصوصاً وان العربي يعتز بما يمتلكه »

٢٧ أكتوبر ١٩١١ م　　　　　　(اسننغاردي)

وهذا نص رد كانيفا على البرقية :

« وزارة الحربية – روما – بالاجابة على البرقية رقم ٩٨٦٩ أصدرت في هذا اليوم أمراً بمصادرة جميع أملاك العرب الذين بحوزتهم أسلحة غير مشروعة ، وهذا الأمر سيتم إعلانه في الحال بواسطة المناشير وعن طريق المناداة »

(كانيفا)

٢٨ أكتوبر ١٩١١ م

ويوجد نص ختم الجنرال تارديتي يحمل عبارة مكتوبة باللغة العربية « العبرة بالأعمال لا بالأقوال » . وكانت وحشية العدوان الايطالي خير دليل على هذه العبارة .

ويضم المعرض عشرات الصور التاريخية الهامة وهي تمثل مختلف مراحل الجهاد الوطني وتسجل العديد من مظاهر النشاط الوطني ضد العدوان إضافة إلى صور كبار المجاهدين .

ومن أبرز الصور الموجودة بالمعرض صورة تمثل دخول رمضان السويحلي إلى مدينة طرابلس وبرفقته المجاهدين في موكب رسمي كبير مخترقاً أهم شوارع المدينة بعد انتهاء مفاوضات صلح بن آدم وخضوع السلطات الايطالية لمطالب وشروط المجاهدين .

ومشهد من مفاوضات الصلح بين المجاهد عمر المختار والايطاليين الذين نكثوا بكل المواثيق والعهود .



أعلام مهداة إلى السيد أحمد الشريف السنوسي أثناء حرب ١٩١١ – ١٩١٢ م من مدرسة البنات بالاسكندرية بمناسبة الجهاد.

وصورة تمثل جماعة من مجاهدي عائلة غيث في جهة درنة . وصورة غنائم حربية يحيط بها عدد من المجاهدين وصور متفرقة للمجاهد سليمان الباروني في مختلف مواقع الجهاد وبعض الصور النادرة لرمضان السويحلي وصورة تمثل استعراضاً لعدد من كتائب المجاهدين وصورة جامع المجابرة بمسلاتة وهو المسجد الذي اجتمع فيه قادة الجهاد من مختلف مناطق الوطن وفيه تم الاتفاق على إعلان الجمهورية يوم السبت ١٣ صفر ١٣٣٧ هـ ، ١٦ نوفمبر ١٩١٨ م ، كما أعلنت فيه نتيجة انتخاب مجلس الجمهورية ومجلس الشورى .

والحقيقة أن الصور المعروضة هي أكثر من أن تحتويها هذه العجالة وأهم كثير من مجرد الاشارة إليها ، وقد علمت من الاخوة المشرفين على إعداد المعرض بصدد إعداد كتيب يعد على آلة النسخ يحوي جميع المواد والشروح ويكون كدليل للمعروضات حسب تسلسلها .

وإذا كانت لي من ملاحظة أود الاشارة إليها هو أملي أن يتمكن المعرض في المستقبل من إعداد مواده وفق التناسق التاريخي وحسب ترتيب الحوادث والأزمنة التاريخية حتى يعطي فائدة أكثر للناشئة من الطلاب والزوار وحتى يتيح معلومات ثابتة ترسخ في أذهان الزوار وتعطي إفادة تاريخية قيمة .

كما أن افتتاح المعرض كان فرصة لإقامة المحاضرات والندوات المتعلقة بالتعريف بمختلف أوجه النضال الوطني ضد الاستعمار وعلامة من علامات فتح أبواب التاريخ الوطني على مصراعيه للشعب بعد أن ظل مغلقاً العديد من السنين . وكان في إمكان العديد من الجهات المهتمة بالشئون الثقافية والتاريخية أن تسارع بإعداد جدول أعمال للعديد من الدراسات والبحوث والمحاضرات ودعوة عدد من أفاضل الرجال الذين عاصروا مختلف مراحل الجهاد للاستفادة منهم وتقديم خبراتهم وتسجيل معلوماتهم .

الحق أن تاريخنا الوطني بحاجة إلى كل الجهود وإلى تآزر وتكاتف مختلف الأجهزة لإعطائه حقه من الدراسة والتسجيل وحتى ينزاح كل غبار الزيف والتضليل . وإقامة هذا المعرض هو خطوة في هذا الطريق . . خطوة تستحق التقدير وتستحق المزيد من الاهتمام والرعاية إذا كنا حقاً جادين في إعادة التسجيل الصحيح لتاريخنا وإزاحة كل غبار عالق به .

في ذكرى
اكتوبر السادسة

بقلم:

حاجة كاشف: عضوه الاتحاد النسائى السودانى

لقد بدأ الشعب المصري (فعلاً) في تكملة المشوار . . .

لم تكن ثورة اكتوبر نبتاً شطانياً . . .

الشعارات التي انطلقت من حنـــاجر الجماهير في « اكتوبر » جاءت « مايـــو » لترجمتها إلى عمل . . .

تمر ذكرى ثورة أكتوبر السادسة . في وقت تخيم فيه على الوطن العربي وعلى قلوبنا

◄

بداخله موجة حزن عميق لفقدنا الزعيم الراحل والقائد البطل جمال عبد الناصر :

« فين السبع اللي كان هنا واللي حبيبنا كلنا »

هذا النواح الذي رددته النسوة المصريات في دار الاتحاد الاشتراكي بالقاهرة صبيحة وداع القائد — نردده نحن اليوم .

ولكن عزاءنا هو أن الشعب المصري العريق الذي بكى الزعيم الراحل ووعده) بأن يكمل المشوار (قد بدأ فعلاً في تكملة المشوار بنتيجة استفتائه التي جاءت بالسيد أنور السادات ليقود الأمة في مسارها الطويل .

وعزاؤنا أيضاً أننا نحن في سوداننا الحبيب — وفي الذكرى السادسة للثورة اكتوبر الرائدة — نكرر وعداً قطعناه على أنفسنا في المسيرة السودانية لتشييع الزعيم الراحل في القاهرة — أن نسير في درب التحرر والاشتراكية . الدرب الذي عمل له الزعيم الراحل ومات فيه .

وثورة اكتوبر لم تكن نبتاً شيطانياً — أو هبة مفاجئة كما يحلو للبعض أن يصفها . بل ان الشعب السوداني قد ظل يعمل لها بمعنى أنه يعمل لتحرره الحقيقي قبل الاستقلال وبعده . عمل لها الشعب السوداني الذي نجح في تحقيق الاستقلال دون أن يتدنس في الأنظمة الاستعمارية التي ابتكرها الاستعمار آنذاك — ليسير بالسودان في طريق التطور الدستوري البطيء — فاقترح المجلس الاستشاري لشمال السودان والجمعية التشريعية — رفضها الشعب السوداني .

وأصر على مطلب واحد واضح الاجلاء والاستقلال — في حين أن بعض الشعوب الافريقية كان من مطالب حركة التحرر فيها الاشتراك في مثل تلك الأنظمة الاستعمارية حتى تعمل كقوة مساعدة لحركة التحرر من داخل هذه الأنظمة — أما الشعب السوداني فلم يطلب غير الجلاء والاستقلال — وكان له ما أراد بمساعدة مصر كطرف شكلي في الحكم الثنائي .

وبمساندتها الفعلية في دفع الشعب السوداني من أجل تحقيق هدفه – كما أن الظروف العالمية والرأي العام العالمي قد ساعدا إلى حد بعيد .

وعمل الشعب السوداني لثورة اكتوبر منذ فجر الاستقلال عندما كشف النظام البرلماني الذي كان قائماً آنذاك على أنه نظام لا يتصف بالديمقراطية الحقيقية بل هو قائم على أسس قبلية وطائفية وإقطاعية وعشائرية – ولكن الشعب السوداني كان يحاول – رغم معرفته لذلك النظام أن يجد الصيغ والحلول الوقتية التي يمكن أن تخدم ولو جزءاً من مصالح الشعب . فمرة يقترح حكومة وطنية ومرة حكومة قومية وأخرى ائتلافية – وكل ذلك محاولات لكي ينفرد حزب من الأحزاب التقليدية بالحكم وذلك لعدم ثقة الجماهير في تلك الأحزاب . ونجحت الجماهير إلى حد – غير أن مؤامرات الاستعمار والرجعية في الداخل والتي تنزعج لتزايد الوعي بين الجماهير – والتي خافت أن تسيطر الجماهير على ذلك النظام البرلماني – نجحت في تسليم السلطة للديكتاتورية الغاشمة .

وسيطر الحكم الديكتاتوري البغيض ستة أعوام كاملة حاول فيها أنْ يكمم أفواه الناس ولكن الجماهير لم تسكت ولم تنم والمنظمات الديمقراطية ظلت تعمل رغم أنها كانت حسب القانون الديكتاتوري غير قانونية – فقد أصدرت الحكومة آنذاك قانوناً حلت بمقتضاه جميع المنظمات الديمقراطية – كاتحادات الشباب والعمال والطلاب والزراع والموظفين .

وهكذا ظلت الجماهير تعمل . . .
وفي ذات الوقت كان هنالك اخوة لنا في الكفاح داخل القوات المسلحة السودانية يعملون لتقويض النظام البائد فنظموا أنفسهم ومارسوا كل الأساليب من ضغط وتهديد وحتى المواجهات المسلحة كل ذلك من أجل الشعب .
وهكذا من كل بيت ومن كل شارع ومن كل متجر . ومن داخل الجيش أندلعت ثورة اكتوبر الرائدة وأطاحت بالطغمة الحاكمة – وأمسكت الجماهير الزمام

من منظماتهم ومواقعهم التي اصطفت في جبهة واحدة « جبهة الهيئات » تقود الثورة وتنظم وتبدأ العمل .

فقد وضعت الجماهير أمامها خطوطاً محددة انطلقت في شكل شعارات عبر حناجرها –التطهير – ودعم المنظمات الديمقراطية – وتصفية الادارة الأهلية – والتربية الوطنية – وحل مشكلة الجنوب – والاصلاح الزراعي – والتأميم – والتخطيط الموجه – والسياسة الخارجية المتحررة .

انزعجت الدوائر الرجعية المحلية والامبريالية العالمية لنجاح ثورة الشعب السوداني الكاسحة ، وخافت من النتائج . فبدأت تحيك الدسائس والمؤامرات في الداخل والخارج، واستغلت في تنفيذ مخططها بعض العناصر داخل جهاز الحكم . كما استفادت من اهتزاز جبهة الهيئات الذي أدى إلى نهايتها ، وهنا يجدر بنا أن نوجه اللوم والنقد لأنفسنا في الذكرى السادسة لثورة اكتوبر الرائدة –نحن المنظمات والهيئات الشعبية– فقد انشغلت هذه البسيطة والعدو ومؤامراته يحيط بها من كل جانب حتى نجح المخطط الاستعماري وبدأت تصفية العناصر الثورية من الحكم ووجدت الأحزاب التقليدية الطريق ممهداً أمامها لتعود لكراسي الحكم. – فجاءت وهي في هذه المرة أكثر شراسة وإصراراً لتقويض مكاسب الشعب ولتخريب منجراته فاهتز الكيان الاقتصادي وساد الفساد الاداري والسياسي وعمت المحسوبية واللامبالاة وانعدم الوازع والضمير ، وتردت البلاد في ظلام الافلاس والخراب والفوضى وبدا التخريب منحدراً نحو الهاوية . والجماهير التي فلتت منها الزمام كانت تعمل ودون هوادة بعد ان اكتشفت الخطأ الذي ارتكبته تعمل وتعبيء جهودها ، ولكن قوى الافساد والدمار والاستعمار كانت تسيطر على الموقف رغم المجهودات الشعب بكل طاقاته . وبلغ الأمر حداً من السوء والخلل كان لا بد من إنهائه بمواجهة عسكرية . الشعب .. تحركت وهي في هذه المرة أيضا أكثر ضراوة وأشد إلحاحا وعزما على تحقيق مصالح الشعب وتطلعاته ، وترسيخ قواعد تطوره .

فجرتها قواتنا الوطنية المسلحة وهي لم تتم بين اكتوبر ومايو – بل كانت تخطط للبداية وترسم الطريق المؤدي إلى الوادي الأخضر الفسيح حيث النماء والرفاء . اندلعت مايو لترجم

شعارات اكتوبر إلى عمل ولتمهد الطريق للاشتراكية.

فعمليات التطهير التي تمت ودعم الحركة الديمقراطية المنظمة، وإيجاد الحل السلمي المريح لمشكلة جنوب السودان وقوانين الاصلاح الزراعي، وقرارات التأميم والمصادرة والسلم التعليمي الجديد الذي يعتبر فتحاً في عالم التربية في السودان، وتحسين أحول قانون الشخصية بالنسبة للمرأة، وقانون العمل الموحد والسياسة الخارجية الواضحة التي تقوم على معاداة الاستعمار ومصادقة الدول الاشتراكية المحبة للسلام ومساندة حركات التحرر الوطني، كل هذه معالم في طريق الاشتراكية — ومنجزات حققتها مايو للشعبية من أجل الشعب.

غير أن المشوار لم ينته بعد. وهذه المكاسب التي حققناها تحتاج إلى تطوير وحراسة ويقظة على الصعيدين المحلي والعالمي. وان التفات المواطنين إلى العمل وتحسين مستوى الانتاج وتكثيفه وتطويرها، يقع علينا كلنا — كما يقع عبء حث الجماهير على أداء واجباتها قبل مطالبتها بحقوقها وبمستوى يتناسب ودقة المرحلة التي تمر بها البلاد.

وتقع علينا مسئولية تبصير الجماهير بالدسائس والمؤامرات وقوى الرجعية والاستعمار التي تتربص بالسودان — وتتحين الفرص لتقويض مكاسبه مستغلة مشكلة الجنوب لتنفث سمها في المناخ الصحي المعافى الذي أوجدته ثورة مايو للعمل والتفاهم وحل المشاكل على أسس علمية صحيحة مريحة تعود بالنفع والفائدة للوطن كله.

ومتخذة من ناحية أخرى — المسألة العربية وما يكتنفها من مشاكل — سبباً لإثارة الفتن ونشر الفرقة بين صفوف العرب — فإن ما يجري في الأردن اليوم ما هو إلا تآمر الرجعية المحلية مع الامبريالية العالمية ضد القومية العربية وضد الشعب الفلسطيني وضد الشعب الأردني.

فالاستعمار والرجعية المحلية يعملان بنشاط ضد مصالحنا وضد مستقبلنا. وليس أقدر على العمل الجاد الموجه واليقظة والكشف لمواجهتهما

بمناسبة
اليوبيل الفضى
لهيئة الأمم المتحدة

جريمة الجرائم

إبادة الجماعات البشرية

« ما فتئت هذه الجريمة تهز ضمير البشرية ومع ذلك لم يعمل شيء للمعاقبـــة عليهـــا »

البيجوم إكرام الله

اعداد: سميح عبدالوهاب

منذ سلب قرطاجنة ونهبها ، بل ربما قبل ذلك أيضاً ، وجريمة الجرائم هذه – كما يصفها الدكتور رفائيل ليميكين ، مبتدع الكلمة المعبّر عنها بالانجليزية « جينوسايد » Genocide ، تتكرر هذه الجريمة بنظام يشبه النظام الذي يسير عليه قانون علم الأحياء .

إن أصل هذه الكلمة مشتقّ من اللغة اليونانية : فعبارة « جينو » تعني « جنس » وعبارة « سايد » تعني « إبادة أو إفناء » . فكلمة جينوسايد Genocide ، معناها الحرفي إبادة جماعات من الكائنات البشريّة ، إسم جديد لجريمة قديمة . . . هذا ويورد معجم ويبستر (Webster) إن كلمة « جينوسايد » معناها استعمال التدابير المنتظمة الّتي تؤدي إلى إبادة أو إفناء جماعة تنتمي إلى عرق – جنس معين – أو تعتنق مذهباً سياسياً أو ثقافياً معيناً .

وجريمة إبادة الجماعات البشرية هذه هي ارتكاب أعمال بقصد إبادة جماعة من الناس ، لعوامل قومية أو عنصرية أو دينية ، إبادة كلية أو جزئية . وما هذه الأعمال ؟ – أولها بالطبع هو القتل . ولكنْ في الامكان أيضاً إبادة مجموعة من الكائنات البشرية دون تعريضها إلى مذبحة بشرية مباشرة . ولذلك يتضمن التعريف الوافي الأعمال المسبّبة أضراراً جثمانية أو عقلية خطيرة ، وتعمد تسويء ظروف الحياة بغية الوصول إلى التدهور

الجثماني وفرض قيود لمنع التوالد ، وأخيراً ، نقل الأطفال بالقوة من طائفة معينة إلى طائفة أخرى . فجريمة إبادة الجماعات البشرية إذن تنطوي على هذه الأعمال كلها .

يعني الاعتداء على الجماعات البشرية أي فعل من الأفعال الآتي ذكرها أدناه إذا ارتكبت بقصد القضاء كلياً أو جزئياً على جماعة تنتمي إلى وطن أو عنصر أو جنس أو دين بعينه :

١ – قتل أفراد الجماعة .

٢ – إحداث أذى خطير جسمي وعقلي بأفراد الجماعة .

٣ – إخضاع الجماعة عمداً لظروف معيشية روعي فيها أن تؤدي إلى هلاكها مادياً بصورة كلية أو جزئية .

٤ – فرض إجراءات تهدف إلى منع التوالد في الجماعة .

٥ – نقل أطفال الجماعة بالقوة إلى جماعة أخرى .

وطبقاً للقانون الدولي يشكّل الاعتداء على الجماعات البشرية جريمة تتنافى مع روح وأهداف الأمم المتحدة ويستنكرها العالم المتمدين . وقد أنزلت هذه الجريمة بالانسانية في جميع عصور التاريخ أضراراً جسيمة .

ولقد قُدّر للجيل الحاضر أن يرى هذه الجريمة على نطاق واسع في ألمانيا النازية وفي إسرائيل والشرق الأوسط ، حيث وضعت التشريعات الخاصة لجعلها جزءاً من سياسة الدولة ، استخدمت في تنفيذ ذلك كل الوسائل العلمية كما أقرت التجرّد التام من الانسانية .

المسألة تثير الاهتمام الدولي :

وإن الجنود الذين اعتادوا رؤية الفظائع وشهدوا مظاهر وحشية الحرب وقسوتها ، تأثروا عندما رأوا لأول مرة التدهور الجثماني الذي آلت إليه حالة بعض من بقوا من الضحب على قيد الحياة بعد ارتكاب هذه الجريمة ضدهم .

وأصبحت معاقبة هذه الجرائم الممقوتة التي هزّت ضمير البشرية من أهداف الحرب الرئيسية عند الدول المتحالفة . ففي عام ١٩٤٥ اتفقت الدول

الأربع الكبرى على وجوب معاقبة المسؤولين عن اتباع هذه السياسة في دول المحور ، لا لخرقهم قوانين الحرب وعاداتها فحسب ، ولا لارتكاب جريمة التفكير في حرب عدوانية والاستعداد لها ثم القيام بها ، بل للجرائم التي ارتكبوها أيضاً ضد الانسانية ، من قتل وإبادة واستعباد وتشريد ، وما إلى ذلك من الأعمال المجرّدة من الانسانية التي ارتكبوها ضد السكان المدنيين ، قبل الحرب وخلالها ، وكذا للاضطهادات التي اقترفوها لأسباب سياسية أو عنصرية أو دينية ، لها علاقة بالحرب .

واستقرّ الرأي على أن معاملة دولة ما لرعاياها لم تعد من شأنها وحدها ، بل أصبحت مسألة تثير الاهتمام الدولي .

وعلى هذا ، تبين أن كبار مجرمي الحرب ، وكثيرين من ذوي الرتب الصغرى في حكومة ألمانيا النازية ، كانوا مذنبين وقد نالوا جزاء ما اقترفت أيديهم ضد مواطنيهم أنفسهم .

وقد صادقت ١٩ دولة حليفة ، وكذا الجمعية العامة للأمم المتحدة بقراراتها ، على الاجراء الذي اتخذته بهذا الصدد الدول الأربع المتحفة وكذلك على قرارات محكمة نورمبرج .

ولكن تقرر ألا يقتصر العقاب على الأعمال التي ترتكب زمن الحرب أو لارتباطها بالحرب ، بل يطبق تطبيقاً عالمياً . ومن ثمّ جاءت فكرة عقد اتفاق خاص يمنع جريمة إبادة الجماعات البشرية ، ويعاقب مرتكبوها ، بغض النظر عما إذا كانت هذه الجريمة قد ارتكبت خلال زمن الحرب أو زمن السلم .

في الجمعية العامة للأمم المتحدة :

ما الغرض من الاتفاق الخاص بمنع إبادة الجماعات البشرية ؟

الجواب على ذلك في العنوان الكامل للاتفاق ، وهو منع هذه الجريمة ومعاقبة مرتكبيها .

قالت البيجوم إكرام الله (من الباكستان) في الجمعية العامة للأمم

المتحدة : « ما فتئت هذه الجريمة تهزّ ضمير البشرية ومع ذلك لم يعمل شيء للمعاقبة عليها . إن اكتشافات العلوم وضعت من الأسلحة في أيدي الرجال — ما جعل الجريمة سريعة ومروعة حقاً » . لذلك أصبح الاتفاق الخاص بها ضرورياً ويجب ألا يتأخر قبوله » .

ما يقترحه اتفاق الأمم المتحدة « لمنع الجريمة والمعاقبة عليها » ؟

أول ما ينص عليه الاتفاق في هذا الصدد هو أن إبادة الجماعات البشرية ، سواء تمت في زمن السلم أو في زمن الحرب ، تعد جريمة بمقتضى القانون الدولي تتعهد الدول المتعاقدة بمنع ارتكابها ومعاقبة مرتكبيها .

فهذا النص الوارد في المادة الأولى من الاتفاق ، يعزّز القرار الذي وافقت عليه الجمعية العامة بالاجماع يوم ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٦ . وقد أعلنت كل الدول الأعضاء في هذا القرار أن إباده الجماعات البشرية جريمة دولية . وفيما يلي أهم المبادىء التي أقرّها الاتّفاق .

١ — يلزم الاتفاق الأطراف المتعاقدة بوضع التشريعات اللازمة لجعل شروطه نافذة المفعول ، وخاصة فيما يتعلق بتوقيع المعاهدات .

٢ — تلتزم الدول بمحاكمة الأشخاص المتهمين بارتكاب هذه الجرائم أمام المحاكم المختصة .

٣ — توافق الدول على أن الأعمال المنصوص عليها لن تعدّ جرائم سياسية . وعلى ذلك تتعهد الدول بتسليم المتهمين بارتكاب تلك الأعمال ، وفقاً لقوانينها ومعاهداتها .

كل هذه الارتباطات والتعهدات خاصة بما تقوم به الدول المتعاقدة من إجراءات في داخل بلادها . إلا أن الاتفاق يشير أيضاً إلى إجراء محاكمات أمام محكمة جنائية دولية ، في حالة تشكيل هيئة لهذا الغرض ، وقبول الدول المتعاقدة لأحكامها . وعلاوة على ذلك ، ينصّ الاتفاق على أن في وسع كل دولة من الدول المتعاقدة أن ترفع إلى الهيئات المختصة التابعة للأمم المتحدة ، متهمة دولة أخرى بارتكاب هذه الجريمة ، ثم تطلب القيام بالعمل المناسب وفقاً للميثاق .

وإذا نشب خلاف بين دولة وأخرى حول تفسير الاتفاق وتطبيقه

وتنفيذه فيجب عرضه على محكمة العدل الدولية بمجرد أن يطلب أحر طرفي النزاع .

من يمكن معاقبته ؟

تجيب مادة واحدة على هذا السؤال البالغ الأهمية . لأن جريمة إبادة الجماعات البشرية لا يرتكبها عادة الأفراد العاديون . بل أشخاص لهم سلطة ونفوذ . وتقول المادة الرابعة من الاتفاق إن مرتكبي هذه الجريمة ومرتكبي الجرائم الأخرى المنصوص عليها . يعاقبون « سواء أكانوا حكاماً مسؤولين دستورياً أم موظفين عموميين أم أفراداً عاديين » فهذه العبارة تحول قيام أي شخص بالرغم من أنه متمتع بالحصانة لأنه كان على على رأس دولة أو لأنه كان موظفاً عمومياً .

هل سيكون الاتفاق نافذ المفعول ؟

قال بعض الأعضاء أثناء المناقشة التي دارت في اللجنة السادسة « اللجنة القانونية » إنه ليس في الامكان جعل ذلك الاتفاق نافذ المفعول . وقالوا إن هذه الجريمة ترتكبها عادة دولة من الدول . فلا يمكن معاقبتها إلاّ بإعلان حرب عليها .

ولكن الرد على هذا هو : انه وإن كان من المحتمل أن يكون صحيحاً عدم إمكان معاقبة دولة إلا بشنّ حرب عليها . وان الحكام كأفراد يعدّون مسؤولين عن الجريمة . والرجال لا يبقون حكاماً إلى الأبد . فيمكن اعتبارهم مجرمين بوصفهم أفراداً . وسيكون الاتفاق مهدداً لهم بالانتقام منهم إذا تغيرت الحكومة . أو إذا غادروا بلادهم . فإمكان توجيه تهمة ضدهم سيكون عائقاً شديداً يصدّهم عن ارتكاب هذه الجريمة أو التفكير فيها .

في جريمة إبادة الجماعات البشرية :

١ ــ الاعتداء على الجماعات البشرية .

٢ ــ التآمر للاعتداء على الجماعات البشرية .

التحريض المباشر أو العلني على الاعتداء على الجماعات البشرية .

٤ ــ الشروع في الاعتداء على الجماعات البشرية .

٥ ــ الاشتراك في الاعتداء على الجماعات البشرية .

من يو جه الاتهام ؟

الجواب على ذلك في المادة الثامنة من الاتفاق ، القائلة بأن في وسع كل طرف متعاقد أن يتصل بالجهة المختصة في الأمم المتحدة لاتخاذ الاجراءات المنصوص عليه في ميثاق الأمم المتحدة والملائم لمنع أعمال الابادة وقمعها هي بالذات أو أي عمل من الأعمال المتعلقة بها ، وهي الأعمال المحددة في المادة الثالثة التي تقضي بالمعاقبة على جريمة إبادة الجماعات البشرية والأعمال الأربعة المتصلة بها ، وهي التآمر على ارتكاب هذه الجريمة والتحريض العلني المباشر على ارتكابها ، ومحاولة ارتكابها أو المساهمة في اقترافها .

وفيما يختص « بالابادة الثقافية للجماعات البشرية » فقد وافقت الأغلبية بالطبع على أن طائفة من الجرائم مثل هدم الكنائس والمساجد والمدارس والمكتبات أو غير ذلك من أعمال الابادة الثقافية تعتبر من أعمال الابادة الثقافية تعتبر أعمالاً همجية ، ولكن الأغلبية ترى أن حماية هذه الحقوق تتعلق بميدان حقوق الانسان وان توسيع اتفاقية إبادة الجماعات البشرية لتشمل مثل هذه الجرائم يؤكّد ويدعّم الغرض الذي أعدّ الاتفاق من أجله وهو منع الابادة المادية والثقافية لجماعات إنسانية بشرية بأكملها والمعاقبةعليها.

لا بد لنا أن نعتبر هذه الجريمة بمثابة أبشع جريمة يمكن ارتكابها ضد الجنس البشري ؛ فضلاً عن أنها جريمة قد تخلق بوجودها وممارستها أسباباً أساسية لقيام حروب جديدة . إن الابادة الثقافية للجماعات الانسانية قد تكون أسوأ من الابادة الجسمية والمادية للجماعات . فالابادة الثفافية أقل مظهراً وأقلّ عنفاً ولا تثير الجماهير إلى نفس الحد ، ولكنها أكثر امتداداً وأعمق بقدر ما هي قادرة على التسرّب ، وهي لذلك تتصف بالخداع والمراوغة . والابادة الثقافية تهدف إلى حرمان شعب بأكمله بجميع الوسائل من ثقافته وتراثه الحضاري ، وتذهب إلى حد جعله ينسى تاريخه ودينه وحتى لغته الخاصة . قال و . ج . ديجنام ، ممثل استراليا في الجمعية العمومية للأمم المتحدة : « لا يمكن للحيوانات البهيمية ولا للهمج الجهـّل أن يضعوا عمداً خططاً تتسم بالقسوة الشيطانية المجرّدة من كل شعور إنساني ، كتلك القسوة التي صاحبت أعمال إبادة الجماعات البشرية التي وقعت في الأزمنة الحديثة ».

التفسخ الثقافي في الغرب

إعداد وترجمة : أحمد اليازوري

تجتاح الغرب ، والولايات المتحدة الأمريكية بالذات تيارات متعددة السمات ، ربما تأتي قريباً على النظام كله وبأكمله . وذلك لأن المجتمعات الغربية اليوم تتكون من تناقضات ويعيش بين أجدرانها أفكار ونزعات وتصرفات مختلفة متناقضة وأحياناً تشتبك في صراع عنيف . ذلك أن تلك المجتمعات والدول لم تبن بنيانها على أساس متين ولم تتخذ لها في الحياة والحكم منهجاً سليماً مأمون العواقب .

لقد قامت على نظام يفرط في الحرية الفردية سلوكاً وفكراً دون صمامات أمن ، فأفرط أفراده في المتعة الحسية خاصة مما

أدى إلى تغير اجتماعي بتفكك روابط الأسرة والروح الجماعية . وإلى ظهور جماعات الهيبز . وأدى الظلم السياسي والاجتماعي إلى خلق روح الثورة والانتقام لدى الملونين والعمل لهدم مجتمع البيض . وأصبح الشباب الحائر الخاوي العقيدة والثائر على القديم يعمل من خلال المظاهرات وحملات العنف بحيث أصبح يشكل خطراً حقيقياً على النظام كله .

ويرى بعض علماء الغرب من أمثال العالم الاجتماعي الامريكي جاري ويلز أن الرئيس نيكسون ربما يكون آخر رئيس من « الأحرار » يجري انتخابه على الطريقة التقليدية في امريكا . ذلك لأن هذا النظام أصبح « مفلساً » كما يقول . وان « نيكسون » يلعب الدور الأخير كرمز وبرهان نهائي لذلك الافلاس . بعد مائة عام من التفكير التحرري (الليبرالي) » .

وفي رأي أستاذ علم الاجتماع بجامعة هارفرد بأمريكا . الدكتور دانيل بل . ان سبب هذا التبدل هو الأساس الثقافي « للرأسمالية الجديدة » غير متين . بل انه لم يكن يوماً بقادر على أن يبدي رأيه في الأمور السياسية — الثقافية . إنه بطبيعته لا يستطيع ذلك .

ويقول الدكتور بل : « إن أقوى سند لأي نظام اجتماعي هو أن يجد الناس تعليلاً أخلاقياً له . وكانت التعليلات السابقة للنظام البرجوازي تكمن في الافراط في حماية الملكية الخاصة . ولكن « الرأسمالية الحديثة » للقرن العشرين قد فقدت ذلك الأساس الأخلاقي . وإن كانت الشعوب التي تنتهجها تؤمن بالحرية الشخصية إلى أبعد حد . ولكن ليس على أساس أخلاقي . وان تلك الرأسمالية لم تقم على أساس متين واضح ، يتبنى نظاماً فكرياً سليماً يدعم استمرار سلامتها .

ولذا يتبين المرأ ضعف الرأسمالية وهي تحاول أن تعالج بعض المعضلات السياسية الكبرى في هذا القرن . ذلك أن هذه المواضيع التي تحتاج إلى حل ليست مواضيع اقتصادية بالدرجة الأولى . ولكنها ثقافية اجتماعية . في رأي الدكتور بل .

وأصبح يعيش في المجتمعات الغربية صنفان من الناس : الانسان التقليدي الذي يمثل الجيل القديم يدافع عن الدين والرقابة ويدعو إلى التشدد في الطلاق وفرض القوانين التي تحرم الاجهاض . لأنه يشعر أن الجيل الجديد قد اشتط كثيراً وغالى في الحرية الشخصية بينما الأول هو الذي سهل له الطريق من حيث يدري أو لا يدري . أما « التقدمي » فيدافع عن العلمانية والعلاقات الشخصية الحرة والتساهل في الأمور الجنسية وما شابه ذلك . وفعلاً نجد في البـــلاد الاسكندنافية وفي قلب نيويورك ولندن وباريس كل ألوان وغرائب المتعة الجسدية والدعوة إليها . . ولا شك أن هنالك دعوة خفية تتحرك في الظلام لدفع تلك الشعـوب في طريق الهاوية . . وربما لا ننسى الحركات المتطرفة السرية . اليهودية وغير اليهودية . التي تلعب دورها في هذا الميدان .

ويعتقد الدكتور بل أن ليس هنالك نظام قيم لهذه الرأسمالية ، أو أنها لا تزال نسخة مترهلة عن القيم البروتستانتية التي تعني بأن بإمكان الليبرالية التحررية — وهي حركة تؤكد على الحرية العقلية والمحتوى النصراني — أن تمضي فكرياً دون أن يصيبها التغير . ولكن الحرية اليوم في مأزق سواء في ميدان السياسة عندما تعني الايمان بالتقدم واستقلال الفرد الذاتي وحماية الحريات السياسية والمدنية ، أم في ميدان الاقتصاد حيث تعني الحرية الفردية والمنافسة الحـــرة .

وفي الولايات المتحدة الأمريكية تتعمق جذور الفلسفة الاقتصادية التحررية في فكرة النمو . وجواب التحررية للمشكلات الاجتماعية كالفقر مثلاً هو أن النمو سيقدم مصادر جديدة لزيادة الدخل عند الفقراء . ولكن فكرة النمو هذه تتعرض اليوم لهجوم عنيف من قبل التحرريين أنفسهم . والنمو نفسه أصبح المسئول عن مشاكل جديدة كتلوث البيئة ، وسلوك وسائل العنف في استعمال المصـــادر الطبيعية ، وكثافة المدن وغير ذلك .

والمجتمع الامريكي يواجه عديداً من المشاكل التي تتطلب سنين طويلة لحلها ، ولكن أعمق أزمة ، وأكثرها استمراراً هي المشكلة الثقافية . إن التغير في المزاج الاخلاقي والثقافة لا تقع مسئولية ضبطه أو السيطرة عليه على الرقابة السياسية . فذلك نابع من القيم والتقاليد الاخلاقية للمجتمع مما لا يمكن « تشكيله » بإصدار الأوامر . والمصدر الأساسي لذلك هــو المفاهيم الدينية التي تكون الأساس العميق للبناء والتكوين الاجتماعي ، وهذا البناء الاجتماعي هو المصدر المباشر .

ولقد فقدت الرأسمالية الامريكيـة مصدرها التقليدي الذي كان مبنياً على نظام أخلاقي من المكافأة حيث ينال المرء نتيجة جهده ، والتي لها جذور في تقديس العمل ، واستبدلت بذلك مذهب المتعة وإشباع الفرد بكل الكماليات والمحسوسات والمغريات ، وأصبح الانسان يؤمن بأن الحياة والتمتع الجسدي فيها هو غاية المنتهى . فإذن يبشر هذا المبدأ بالرفاهية وسيطرة المادة . ومن هنا يبدأ الصراع .

إن النظام المميز لمجتمع صناعي يبني على مبادىء الاقتصاديات والتوفير ؛ على الكفاية وأدنى التكاليف ، وعلى التوسع والتفاؤل والمعقولية العملية . ومع ذلك فإنه عند هذه النقطة يحتدم في صراع عنيف مع الاتجاهات الثقافية الحديثة . فواحـد يؤكد على المعقولية العملية والتقنية والمكافأة على الجهد . وآخر (الاتجاهات الثقافية الحديثة (يؤكد على حالات الروعة والغموض واللامعقولية للتصرف الانساني . وهذا الانفصال والتباعد بين مفهوم وآخر ، بين ما يجب أن يكون وما هو كائن ، هو سبب الأزمة التاريخية للمجتمع الغربي . ويشكل التناقض الثقافي هذا على المدى البعيد أعمق تحدي للمجتمع الغربي .

هجوم

جورج اورويل

على المذهب الشمولي

بقلم : د. لويس عوض

الحلقة الثانية

هجوم جورج اورويل على المذهب الشمولى

يقول جورج اورويل » فى مقال له بعنوان « لماذا نكتب » انه كان يعلم منذ طفولته – وهو فى نحو الخامسة او السادسة من عمره – أنه سيشتغل بالكتابة . وعبثا حاول ان ينبذ هذه النزعة الى الكتابة بين السابعة عشر والرابعة والعشرين ، فقد كان يدرك ان هجران الكتابة ينطوى على تزييف لطبيعته ووجدانه .

ويروى لنا « اورويل » فى هذا العدد طرفا من طفولته فيمن بالقاء الضوء على الظروف التى بدأ الكتابة فى ظلها يقول « اورويل » انه كان يشعر بالوحدة بعض الشئ فى طفولته ، الامر الذى جعل اقرانه فى المدرسة ينفرون منه ويبتعدون عنه طوال سنى دراسته .

وكان اورويل » فى وحدته يتصور فى وحدته انه يتحدث الى اشخاص من صنع خياله ويعترف « اورويل » ان طموحه الادبى كان يختلط بالوحدة من جانب ، كما ان جنوحه الى الكتابة يرجع الى احساسه بأن العالم يغمطه قدره ولا يوفيه حقه من من التقدير من جانب آخر . ومما حدا به الى الكتابة انه كان يدرك منذ نعومة اظفاره انه يتمتع بقدرة على معالجة الالفاظ فى يسر ، ومجابهة الحقائق غير البهيجة ، الامر الذى ساعده الى اقامة محراب لنفسه يلوذ به ويجد فيه تعويضا عن احساسه بالفشل والاحباط الذى يتعرض لهما فى حياته اليومية .

ويتحدث « اورويل » عن نزعته فى مطلع حياته الادبية فيقول : – « كنت اريد ان اكتب روايات ضخمة على نسق روايات المذهب الطبيعى ، تنتهى نهايات غير سعيدة ، مليئة بالأوصاف المفصلة والتشبيهات التى تخلب اللب ، ومليئة كذلك بالفقرات الفخمة التى تستخدم الالفاظ الى حد ماء من اجل مالها من جرس . وفى حقيقة الامر ، كانت اولى رواياتى الكاملة بعنوان « ايام بورما » التى كتبتها فى الثلاثين من عمرى والتى اختمرت فكرتها فى ذهنى قبل ذلك بزمن طويل ، تمثل نوع الكتاب الذى كنت ارغب فى تأليفه . »

ويذهب اورويل » الى ان ظروف العصر الذى يعيش فيه الكاتب تحدد الموضوعات التى يتناولها ، وان هذا ينطبق على اقل تقدير على العصر المضطرب الثائر الذى نعيش فيه . وفى رأيه كذلك ان هناك اربعة دوافع تدفع الانسان الى كتابة النثر ،. وتتفاوت هذه العوامل فى درجة اهميتها من كاتب لآخر . وهذه الدوافع الاربعة هى : –

(١) الانانية البحته : مثل رغبة الكاتب فى اظهار ذكائه ، وفى تخليد ذكراه بعد وفاته . وفى تاكيد ذاته فى اعين بعض الكبار

الذين اساؤا اليه فى طفولته . . . الخ .

• ويقول « اورويل » انه من الخطل ان نقلل من اهمية هذا الدافع الانان البحث .

(٢) التحمس الجمالى الذى يتجلى فى تانير الكاتب ببعض مظاهر الجمال فى العالم الخارجى او فى استجابة الجمالية لجرس الالفاظ وتنسيقها . ورغم ان الكثير من الكتاب يفتقرون الى هذه الاحساس الجمالى فانهم لايخلون منه خلوا تاما . ويقول ، «اورويل » فى هذا الشأن انه ليس هناك كتاب يخلو من الناحية الجمالية تماما فيما عدا « دليل القطارات » ، الذى تصدره هيئات السكك الحديدية لارشاد المسافرين .

(٣) الدافع التاريخى الذى يتلصخص فى الرغبة فى رؤية الاشياء على حقيقتها ، وفى استكشاف الحقائق وتجزيتها حتى تفيد منها الاجيال المقبلة .

(٤) الهدف السياسى بمعناه الواسع العريض الذى يتجلى فى رغبته الكاتب فى تغيير مفاهيم بعض الناس وحثهم على نشدان مجتمع يغاير المجتمع الذى الفوه ، وفى رأى «اورويل » انه ليس هناك كتاب خال من التحيز السياسى ، وفى اعتقاده ان الرأى الذى ينادى بفصل الفن عن السياسة هو فى حد ذاته تعبير عن موقف سياسى .

والغريب فى امر « جورج اورويل » ان يعترف — وهو الكاتب الذى كرس قلمه وفنه للكتابة فى السياسة ولا شئ غير السياسة بأن الدوافع الثلاثة الاولى تفوق الدافع الرابع فى اثرها فيه ، كما يعترف بأن طبيعته الأصيلة تنأى عن السياسة والخوض فيها .

ويصرح « اورويل » قائلا انه لوقيض له أن يعيش فى عصر غير هذا العصر وفى زمن يسوده السلام ، لكان من الجائز ان ينصرف الى الكتابة لكتب الموغلة فى الزركشة والتجميل والا يكرث بولائه السياسى او يأبه به .

ويستطرد « اورويل » قائلا ان التحاقه بخدمة البوليس الامبريالى فى بورما حيث امضى خمسة اعوام من حياته ذاق فيها مرارة الفقر والفشل زادت من كراهيته الطبيعية للسلطان والقائمين به ، كما جعله يدرك ادراكا كاملا لأول مرة فى حياته وجود الطبقة العاملة ، ويفهم شيئا عن طبيعة الاستعمار وآثامه ، ولكن هذا وحده لم يكن كفيلا بتحويل انظاره تماما شطر السياسة التى لم يكن لينصرف اليها بكليته لولا نشوب الحرب الاهلية الاسبانية واحداث عام ١٩٣٦ — ١٩٣٧ . ويعترف « اورويل » بأن كل سطر من اعماله الجادة الذى كتبها منذ ١٩٣٦ تتضمن هجوما مباشرا او غير مباشر على الانظمة الشمولية «التوتاليتارية » ، كما تتضمن دفاعا عن الاشتراكية الديمقراطية حسب فهمه لها . ويرى « اورويل » ان ادراك الانسان لتحيزاته السياسية يزيد من فرصة فى العمل السياسى دون ان يضحى فى سبيل ذلك بأمانته الفكرية او الجمالية .

ويذكر « اورويل » فى مقاله انه وقف قلمه على تحويل الكتابة فى السياسة الى فن . وهو لاينكر الجانب الدعائى فى كتاباته ، ولكنه ينكر انه ليس فى كتاباته سوى

هذا الجانب . فلولا التجربة الجمالية التى يمارسها اثناء الكتابة لما اغرته الدعاية بالكتابة اصلا . ويقول « اورويل » ان الجميع بين السياسة والفن مسألة عسيرة للغاية . ويستشهد على ذلك بكتابة عن الحرب ، الاهلية الاسبانية بعنوان « تحية لكاتالونيا » فهو كتاب سياسى صريح لامراء فى ذلك . ولكنه ، فى نظره ، مكتوب بقدر من ، الموضوعية والعناية بالشكل الادبى . ويعتقد « اورويل » انه سعى جاهدا فى هذا الكتاب الى كشف النقاب عن الحقيقة دون مساس باحساسه الفنى . ويتضمن هذا الكتاب فصلا طويلاً مليئا بالفقرات المقتطفة من الصحف وغيرهامن المصادرالتى تدافع عن التروتسكين الذين اتهمهم زورا وبهتانا بالتامر لحساب « فرانكو » . وبالرغم من أن احد النقاد الذين يحترمهم « اورويل » قد انحى عليه باللائمة لأنه ضمن كتابه هذا الفصل الدعائى الطويل ، الامر الذى احال الكتاب ، وفى نظر هذا الناقد ، من عمل ادبى الى عمل صحفى فان « اورويل » يعترف انه لم يكن بوسعه ان يفعل غير ما فعل . فهو يهدف من الكتاب الى ان يميط اللثام عن بعض الحقائق ،التى شاءت الظروف ان يحيط بها ، امام ابناء جلدته وامام الابرياء الذين وقعوا فريسة ، للتضليل والختل السياسى .ويقول « اورويل عن مزرعة الحيوان » وهى امجد اعماله الادبية على الاطلاق – انها اول رواية يمزج فيها الفن بالسياسة عن وعى كامل وأدراك تام .

(٢) نظرة للوراء على الحرب الاهلية الاسبانية :

يبدأ « اورويل » ذكرياته عن الحرب الاهلية الاسبانية فى مقال له بهذا العنوان (١٩٤٣) بأسبوع التدريب الذى تلقاه فى برشلونة على عجل قبل ارساله الى جبهة القتال . وأسوأ ما يذكره « اورويل » فى هذا الشأن هو مراحيض تكنات التدريب التى يفوح منها العفن وترتفع فيها المخلفات الانسانية بشكل مقزز للغاية كان له اسوا الاثر فى نفسه . وكان « اورويل » يعجب للمفارقة بين القضية النبيلة التى ترك بلاده للزود عنها ، قضية الدفاع عن الديمقراطية ضد الفاشية ، وبين تفاصيل الحياة اليومية المقززة للنفس فى قلب ارض المعركة .

ويعرض « اورو يل » للقطاعات التى ارتكبها الجمهوريون وأعداؤهم الفاشيون فى الحرب الاهلية الاسبانية ، فيقول انه لم ير نفسه كثيرا من هذه القطاعات . ولكنه يعرف ان الجمهوريين والفاشيين قد اشتركوا فى ارتكابها ،ويضيف «اورويل » انه مما يدعوا للاسف أن تصديق هذه ، القطاعات او تكذيبها يرجعع تماما الى الهوى السياسى والحزب الذى ينتمى اليه الانسان ، فالجمهوريون يرفضون ان يصدقوا الفاشيين يبرأون انفسهم منها .

ويرى « اورويل » ان العبرة التى يجب ان نتعلمها من الحرب الاسبانية الا نصدق بحال من الاحوال ما تذيعه فينا اية حكومة ، فكل ما تقوله لايعدو ان يكون دعاية جوفاء

لا اساس لها من الواقع . ويذكر « اورويل انه قال « ارثر كيسلر » ذات مرة ، لقد توقف التاريخ فى عام ١٩٣٦ ،مشيرا بذلك الى بحر الاكاذيب التى غرق فيها العالم مع رأسه فاهما ما يرمى اليه ، فقد كان الاثنان حينذاك يفكران فى الشمولية عامة والحرب الاسبانية خاصة ، التى اثبتت « اورويل » بما لا يدع مجالا للشك مقدار ما يتعرض له تدوين التاريخ من زيف وختل ، وأن كل ما كتب عن هذه الحرب باطل من جذوره.

ويقول « اورويل » فى هذا الشأن ان حقيقة هذه الحرب فى مجملها بسيطة للغاية . فقد رأت البورجوازية الاسبانية ان الفرصة ، أمامها سانحة للانقضاض على الحركة العمالية وسحقها مستعينة فى ذلك بالفاشية وسائر القوى الرجعية فى العالم . وكل ما يقال عن هذه الحرب خلاف هذا أمر مشكوك فيه .

ويعطى « اورويل » بعض الامثلة على ذلك فيقول ان الفاشيين والنازيين كانوا، يتظاهرون بمظهر الوطنيين المسيحيين الغيورين على انقاذ اسبانيا من براثن ، الديكتاتورية الاسبانية ، كما انهم كانوا يبالغون فى تضخيم حجم التدخل الروسى ، فيزعمون ان هناك جيشا روسيا كاملا فى الاراضى الاسبانية فى حين انه لم يكن هناك ، بشهادة ملايين الاسبان انفسهم ، غير حفنة من الطيارين والفنيين الاخرين وبضعة مئات من المقاتلين على اكثر تقدير . واذا قيض للفاشية ان تنتصر ، فسيدون التاريخ من وجهة نظرها ، ويلقن النشئ تدخل مثل هذا الجيش الروسى الوهمى فى الحرب الاهلية الاسبانية ، ويقول « اورويل » ان مثل هذا التزييف فى التاريخ يفزعه لان معناه ذبول الحقيقة الموضوعية واختفائها من العالم .

ويرى « اورويل » انه بالرغم مما تعرض له التاريخ فى الماضى من تزييف ، فقد كان المؤرخون القدامى يؤمنون بوجود حقائق موضوعية يمكن للانسان ان يكتشفها . فاذا طالعنا تاريخ الحرب العالمية الاولى فى «دائرة المعارف البريطانية ، فنجد انها تعتمد جانبا كبيرا من المادة التاريخية من مصادر المانية . وبالرغم من ان المؤرخين البريطانيين والالمان يختلفون بشأن بعض المسائل الجوهرية فى هذه الحرب ، فان هناك منطقة علمية حيادية لا يختلف عليها احد الجانبين ، ويقول « اورويل » ان هذه المنطقة الحيادية التى تشكل اساسا مشتركا للاتفاق الانسانى ، ستندثر اذا قيض للشمولية ان تسود فالنظرية النازية تنكر ان للقيقة وجودا موضوعيا ومعنى هذا ان الديكتاتور النازى وعصابته الحاكمة لا يستطيع ان يسيطر عل المستقبل فحسب ، بل على الماضى كذلك . فيكفى ان يصدر هذا الديكتور امره بان حادثة تاريخية لم تقع حتى يختفى لها كل اثر من الوجود . ويقول « اورويل » فى هذا الصدد ان مثل هذا المستقبل يفزعه اكثر مما يفزعه دوى القنابل .

ويحذرنا « اورويل » من مغبة الافراط فى التفاؤل والاعتقاد بأن الكابوس الشمولى لن يجثم على صدر العالم فى يوم من الايام ،

ولكنه يرى ان هناك سبيلين لازاحة شبح الشمولية الرابض ، اولهما ان انكار الحقيقة لا يعنى انتفائها . فالدولة التى تنكر الحقيقة الموضوعية تهدد كفائتها العسكرية . وثانيهما أنه اذا احتفظت بعض اجزاء العالم باستقلالها فانه يمكن حماية التقليد الليبرالى فيها من الاندثار .

ويذهب « اورويل » الى ان المقاومة التى واجهت « فرانكو » استمدت قوتها الحقيقية من الطبقة العاملة الاسبانية . فهذه الطبقة التى لا يمكن رشوتها على الدوام هى التى تستفيد فعلا من اعادة تنظيم المجتمع . ويضيف « اورويل » ان انهيار فرنسا امام النازية قد دل على ان المفكرين اليساريين هم اول من تخاذلوا امام الزحف النازى ، كما انهم كانوا يقبلون الرشوة التى قدمتها النازية اليهم اما موقف الطبقة العاملة فيختلف عن موقف هؤلاء المفكرين اليساريين . فهم يقعون فريسة لتضليل النازية او الفاشية ويصدقون وعودها الكاذبة بعض الوقت ، ولكنهم سرعان ما يهبون من غفوتهم ، ويدركون غفلتهم ، وان النازية او الفاشية لا تعمل بالفعل على تحسين احوالهم ، الاثر الذى يدفعهم الى مقاومتها فى نهاية المطاف .

ويرمى « اورويل » الطبقة الحاكمة الانجليزية بالدناءة والخسة والجبن والنفاق — او بالغباوة على أقل تقدير — لأنها اسلمت اسبانيا لقمة سائغة فى فم « فرانكو » بامتناعها على تقديم المساعدة العسكرية الفعالة لجبهة الديمقراطيين .ويتهم « اورويل » كذلك روسيا بالتقاعس فى مساعدة اصدقائها من الجمهوريين . فى حين ان المانيا النازية وايطاليا الفاشية لم تتوانيا فى امداد « فرانكو بالسلاح الحديث والعتاد الوفير .

ويحار « اورويل » فى تفسير موقف روسيا من الحرب الاهلية الاسبانية ، فيتساءل هل صحيح ان روسيا كانت تهدف بتدخلها فيها الى اشعال نار الثورة ؟ واذا كان الامر كذلك ، فماذا حد بها الى اخماد الحركات الثورية الاسبانية والدفاع عن الملكية الفردية ، وتسليم السلطة للطبقة المتوسطة بدلا من الطبقة العاملة ؟ ام هل صحيح ان روسيا — كما يتهمها التروتسكيون — كانت تسعى بتدخلها للحيلولة بين الثورة الاسبانية وبين الاندلاع ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا لم تؤيد ، « فرانكو » ؟ ويعترف اورويل » بأن الفاشية الاسبانية تمكنت من الانتصار لأنها كانت بكل بساطة الجانب الاقوى .

ويختتم « اورويل » مقاله عن الحرب الاهلية الاسبانية بقوله ان الذين حاربوا فى جانب « فرانكو » — وهم يزعمون أنهم يحاربون روسيا الملحدة ومادية الطبقة العاملة كانو فى حقيقة الامر لا يريدون التنازل عما يتمتعون به من امتيازات . وليست الحرب الاهلية الاسبانية فى نظرة سوى رمز يشير الى كفاح الطبقة العاملة من اجل حياة أفضل .

الشهيد الــــــمـوم

صفوان بن المعطل

للدكتور: احمد الشرباصي

من نعم الله تعالى على عباده أن فتح أمامهم الأبواب الكثيرة إلى وجوه الخيرات وألوان القربات ، وأثابهم على القليل والجليل من أعمالهم وطاعاتهم ، « إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا » ، وضمن لهم إحصاء ما يقدمون بين أيديهم وصيانته وتقديره ، فهو العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا » .

كما ضمن لهم ألا يبخسهم حقاً من حقوقهم مهما كان ضئيلاً : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

وهذا هو الجهاد — على سبيل المثال — نرى أعماله كثيرة ، وألوانه متعددة ، ومن هذه الأعمال والألوان ما قد يظنه الكثيرون تافهاً أو غير مهم ؛ مع أن أي مجهود يبذله الانسان لخدمة المعركة — سواء أكان باللسان أم باليد أم بالعين أم بالسمع أم بالعقل — يعدّ مشاركةً في الجهاد ، ينال عليها صاحبها الأجر الحميد والذكر المجيد .

ولقد كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام يجنّد صحابته في أعمال الجهاد المختلفة ، ما بين صغير منها وكبير ، وظاهر ومستور ، ومادي ومعنوي ، فيقوم كل منهم بما يوكل إليه في حسن استجابة وعميق إخلاص .

لا يتنافسون على مطامع ، ولا يحرصون على مغانم ، ولا يتمسكون بمظاهر ، بل ربما يكون الواحد منهم في معركة خادماً لإخوانه المجاهدين ، فلا يجد في ذلك غضاضة ، ثم يكون في معركة أخرى بين الصفوف الأولى

من المقاتلين ، فلا يتردد ولا يتقاعس ، ولا يتباهى أو يتعالى .

الكل قد سيطر عليهم الإيمان بالله ، والجهاد لله، وإخلاص العمل لوجه الله ، وإيثار ما عند الله على ما عند الناس ، فلا مباهاة بالنفس ، ولا استخفاف بعمل للغير مهمـــا قلّ .

وإذا كان القوي فيهم يستطيع أن يقدّم جهده كبيراً ظاهراً ، فإنه في الوقت ذاته لا يبخس أخاه الضعيف حقه ، لأن الرسول صلوات الله سلامه عليه يقول : « إنما تنصرون بضعفائكم » .

* * *

وهذا مثل نأخذه من مدرسة محمد العظيم ، عليه الصلاة والتسليم ، ويتجلى هذا المثل في الصحابي المجاهد الجليل : أبي عمرو صفوان بن المعطل ابن رخصة بن المؤمّل السُّلَمي الذكواني رضي الله عنه ، الذي يقول فيه ابن كثير : « كان صفوان من سادات المسلمين » (١) .

ولقد كان صفوان مصاباً بمرض النوم الثقيل ، فكان ينام نوماً عميقاً شديداً لا يستطيع الاستيقاظ منه إلا بعد وقت طويل ، وقد تطلع عليه الشمس وهو نائم ، فيفوته أداء فريضة الصبح في وقتها . فسهّل عليه النبي أمره ، وقال له : « إذا استيقظت فصلّ » .

وحاولت زوجته أن تعالج فيه علته فلم تستطع ، فشكت إلى الرسول أن هذا يؤخره في النوم ، ويضيع عليه الصلاة ، فقال لها : « إنه شيء ابتلاه الله به ، فإذا استيقظ فليصلّ » .

وكان صفوان شاعراً ، ولكنه لم يستخدم شعره في عبث أو مجون أو تكسّب مذموم ، بل زانه بروح الإيمان وأدب الاسلام .

وكان صفوان صارماً في الغضب للحرمات ، وكان يردد قوله إذا غضب :

تلقّ ذُباب السيف عني ، فإنـــني غلام إذا هوجيت ليس بشاعر

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يحب صفوان بن المعطّل ، ويعطف

---

(١) البداية والنهاية ، ج ٨ ص ١٤٦ .

عليه ، ولقد حدث أن أعطى سعد بن عبادة لصفوان ثوباً فلبسه ، فلما رأى النبي الثوب على صفوان سأله قائلاً : من كساك هذا كساه الله من ثياب الجنة ؟ . فأخبره .

ثم شارك صفوان في الغزوات ، فشهد غزوة المريسيع ، وغزوة الخندق ، وغيرهما من المشاهد ، وحضر فتح دمشق ، وجاهد في بلاد الشام ، وفي بلاد العجم .

وكان صفوان موكلاً في أول الأمر بأن يتخلف وراء الجيش عقب المعركة ، ليلتقط ما يسقط من المتاع . تقول السيرة : « وكان يكون على ساقة العسكر ، يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين حتى يأتيهم به » (١) .

* * *

ويروى أن أولى الغزوات التي اشترك فيها صفوان هي غزوة بني المصطلق ، وبنو المصطلق بطن من خزاعة ، ويقال لها أيضاً غزوة المريسيع ، وهو اسم ماء من مياههم من ناحية « قديد » إلى الساحل ، ويقال لها كذلك « غزوة الأعاجيب » لما وقع فيها من الأمور العجيبة .

وكانت هذه الغزوة سنة أربع من الهجرة ، وقيل سنة خمس ، وقيل سنة ست ، وكانت في الثاني من شهر شعبان ، وكان قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بني المصطلق يجمعون له ، وقائدهم الحارث بن أبي ضرار ، فخرج النبي ، والتقى بهم عند ماء المريسيع ، ونصر الله نبيه وجنوده .

وفي هذه الغزوة رأى صفوان السيدة عائشة رضي الله عنها ، قد فاتها الركب ، فاركبها جمله ، وقاده لها حتى بلغ بها المدينة ، ولما تحدث أهل الإفك بافترائهم على الرسول وأهله ، قال عليه الصلاة والسلام عن صفوان : « والله ما علمت منه إلا خيراً » (٢) ، وكذلك قال عنه : « والله ما علمت عليه من سوء قط » (٣) .

---

(١) الروض الأنف للسهيلي ، ج ٢ ص ٢٢٠

(٢) وفي رواية : « ما علمت عليه إلا خيراً » .

(٣) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٢٧٠ . وانظر البداية والنهاية ، ج ٨ ص ١٤٦ .

وانعم بها من شهادة ينطق بها الصادق المصدوق الذي قال فيه رب العزة وهو أصدق القائلين : « وما ينطق الهوى ، إن هو إلا وحي يوحَى » .

ويؤيد هذه الشهادة ويؤكدها أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سمع رجلاً يذكر صفوان بشيء من النقد أو العيب ، فغضب المصطفى وقال لذلك الطاعن : « أتعيب على قومي أن هداهم الله عز وجل للإسلام » ؟

وقد جاء الوحي مزكياً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنزلت الآيات في سورة النور بطهارة الصدّيقة بنت الصدّيق رضوان الله عليهما ، وبراءة الصحابي التقيّ النقيّ صفوان بن المعطّل (١) .

* * *

وانتقل صفوان من عمله الهادىء في الغزوات ، وهو جمع أمتعة الجيش المتخلفة وراءه لردها لأصحابها ، إلى الإسهام الحربي الواسع في القتال ، حتى روت السيرة أن فريقاً من أعداء الله تعالى وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم تجمعوا عند حصن اسمه « فارع » ، وطعنوا في حق الرسول والإسلام .

فقال عليه الصلاة والسلام لمن حوله من المسلمين : « مَنْ لى بأصحاب البساط عند فارع ؟! » .

فسارع صفوان يقول : أنا لك بهم يا رسول الله .

وخرج إليهم وحده ، وقد حمل سيفه ، وعقد نيته وعزيمته على أن يلقاهم منفرداً ، فإما أن ينال منهم ويؤدبهم ، وإما أن ينال الشهادة .

وحينما رأته عصبةُ السوء شاهراً سيفه ، مقبلاً كالسيل الجارف العارم ، والشرر ينقدح من عينيه ، خافوه وأطلقوا سيقانهم للريح .

واتسع نشاط صفوان في الجهاد ، فاشترك في جانب من مواقف الجهاد بالشام ، وحضر فتح دمشق ، ثم خرج مجاهداً في معركة « أرمينية » ، في السنة التاسعة عشرة ، وكان قائد الجيش فيها هو عثمان بن أبي العاص ، وكان معه أمراء مساعدون ، أحدهم هو صفوان بن المعطّل .

---

(١) كان صفوان يقول : « والله ما كشفت كنف أنثى قط » . والكنف هنا هو الستر . وقيل إن ابن المعطل كان حصوراً ، لا شيء له في النساء، ولكن هذا لا يسهل قبوله ، لأنه كان متزوجاً .

وجاهد صفوان يومئذ جهاداً مجيداً حميداً ، حتّى اندقّت رجله ، ولكنه طاعن بها وهي منكسرة ، وظل على جهاده وكفاحه ، حتّى نال الشهادة[1] رضوان الله تبارك وتعالى عليه

وهكذا أرانا صفوان في حياتة صورة للمسلم المطواع لأمر الله سبحانه، وأمر رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، فهو لا يتردد أن يقبل أي عمل من أعمال المعركة يكلفه به قائده ، وتحتاج إليه مصلحة المعركة ، وهو لا يتردد حين يدعوه الداعي إلى موقف البذل والتضحية والفداء ، دون أن تصغر نفسه في الأولى ، أو تتباهى في الثانية ، فإنه من قوم مسح الله عز وجل بيده القدسية على صدورهم الطاهرة ، فأزال عنها حب الذات وضيق الأفق ورعونة النفس ، وعَمّرَها بالهدى والتقى والاخلاص ، فكانوا أبناء خير أمة أخرجت للناس .

ألا إن الكريم العظيم هو من رضي الله عنه ، وتقبلـه بقبول حسن ، مهما كان فقيراً أو مجهولاً ، والحقير اللئيم من غضب عليه ربه وحرمه نعمة الرضى والقبول ، ولو كان فظاً غليظاً ؛ ورب أشعث أغبر ذي طمرين ، لو أقسم على الله لأبره ، كما قال سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) اختلف في مكان استشهاده وزمانه ، فقيل استشهد بأرمينية ، وقيل بالجزيرة ، وقيل بشمشاط أو سميساط ، ويقول السهيلي في الروض الأنف : « حتّى مات ، وذلك بالجزيرة ، بموضع يقال شمطاط » ، ج ٢ ص ٢٢١ . ولكن المشهور أنه استشهد في أرمينية . يقول الذهبي في العبر : « سنة تسع عشرة : فيها كانت وقعة أرمينية ، أصيب فيها صفوان بن المعطل الذكواني » ، ج ١ ص ٢٣ . ويقول ابن كثير عن سنة تسع عشرة : « ومات فيها صفوان بن المعطل في قول » ، البداية والنهاية ، ج ٧ ص ٩٧ . وفي ص ٧٦ يقول : « وبعث عثمان ابن أبي العاص إلى أرمينية ، فكان عندها شيء من قتال قتل فيه صفوان ابن المعطّل السلمى شهيداً » . ويقول السخاوي في التحفة اللطيفة : « قتل في خلافة عمر بن الخطاب في غزاة أرمينية شهيداً ، وقيل غير ذلك » ، ج ١ ص ٣٠٥ .

المهاتما غاندي

ترجمة : مصطفى جودة

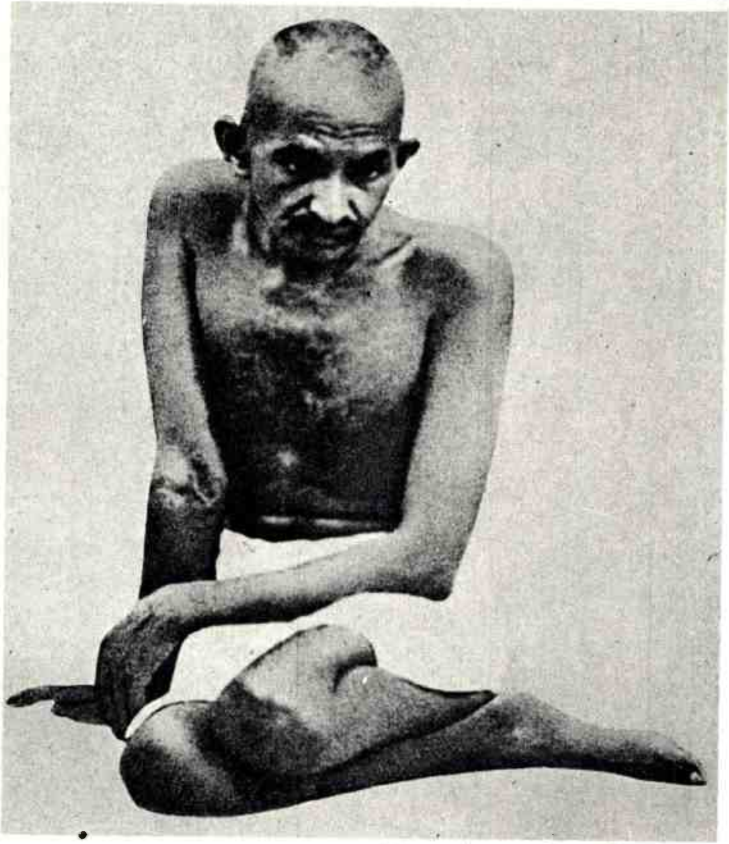
بالنسبة للعالم كان موهنداس كرمشند غاندي مصلحاً ، ورجلاً نحيلاً شجاعاً ؛ بشّر بالعصيان المدني ، وبالنسبة لأتباعه كان قديساً ، وبالنسبة لكثير من ساسة انجلترا ورجال جيشها ، كان دجّالاً وسياسيّاً داهية ، استخدم « طهره » و « وورعه » سلاحاً للمساومة السياسية .

ومهما كانت الصورة التي يرسمها التاريخ له ، فقد كان بالنسبة لنا جميعاً ، نحن معاصري القرن العشرين ، نموذجاً نابضاً للهنـــد .

ولم تكن الهند التي ولد بها غاندى سوى مستعمرة ترزح تحت نير الاستعمار البريطاني الذي تغنّى به كبلنج (١) .

---

(١) روديارد كبلنج (١٨٦٥ ؛ ١٩٣٦) شاعر روائي انجليزي ولد في الهند من أكثر مؤلفاته انتشاراً مجموعة من القصائد بعنوان « أناشيد متنوعة » ١٨٨٦ م، ومن مؤلفاته أيضاً « النور الذي خبا » و « ثلاثة جنود » ١٨٨٨ م، و « القواد الشجعان » ١٨٩٧ ، وأكثرها كتب لمطالعات الأطفال . وصف في روايته « قصص مبسطة من السهول » ١٨٨٨ م الحياة في الهند وما فيها من جهاد وملل . وغلبت النزعة الاستعمارية على أكثر أعماله الشعرية ، ومنها « جنجارين » و « رسالة الرجل الأبيض » . وكان أول كاتب انجليزي يفوز بجائزة   بل للأدب ١٩٠٧ م، ودفن بمقبرة وسنمنستر .



غاندي في عام ١٩٣١م

وتعلم غاندي أن يسبح بحمد الرجل الأوربي الذي يحكم بلاده . وحينما بلغ التاسعة عشرة من عمره ، سافر إلى لندن لدراسة القانون ، وتفوّق وحصل على أعلى الدرجات ، وتخرّج ليصبح محامياً .

ولقد كانت سنوات دراسته التي عاش فيها متقشّفة ؛ يطبخ لنفسه غذاءه النباتي ، ويتجنب ازدراء البيض والبراهمة على حد سواء ، كانت السنوات سنوات تنوير وانفتاح . فقد تخلى المهاتما عن تعصبه للهندوسية (الهندوكية) ، ولم يكتف بدراسة القانون ، بل درس المسيحية وأدب

السلام . وقال فيما بعد إنه تعلم « اللاعنف » من المسيح ، و « اللاتعاون » من تولستوي ومن ثورو (٢) تعلم العصيان المدني .

مواطنون من الدرجة الثانية

وحينما عاد غاندي إلى بلاده بدأ في ممارسة المحاماة ، حتى صادفته إحدى القضايا فتحول إلى السياسة . وشدته هذه القضية إلى جنوب افريقيا حيث وجد المهاجرين الهندوس يقاسون الأهوال من حرمانهم من حقوقهم المدنية ، ومن معاملتهم كأنهم من جنس أدنى . وهبّ غاندي على الفور يدافع عن حقوقهم الضائعة وينادي بالمساواة . وتبلورت لديه فكرة المقاومة السلبية كسلاح سياسي بتّار . وأوصلته أفكاره هذه إلى السجن ، لكنه استطاع أن يجبر السلطات على التخلي عن نظرتها إلى الهندوس كمواطنين من الدرجة الثانية .

وعاد غاندي إلى مسقط رأسه ليشهد الصورة كاملة — ربما للمرة الأولى — وصدمه الفساد السياسي والفاقة والبؤس ، صدمه نظام الطوائف ، وما أسفر عنه من تفسخ ، وراعه الاذلال الذي تعيشه طبقة المنبوذين والعمال الذين يحترفون الأعمال التافهة في المدن والقرى . وهالة التقاليد العقيمة الخرافات التي تملكت عقود الهنود وتصرفاتهم والتي استغلها المستعمر الانجليزي .

وخلال سنوات الحرب العالمية الأولى ، ساعد غاندي البريطانيين ، وطالب بتجنيد كل من لا تمنعه عقيدته عن الحرب .

---

(٢) هنري دافيد ثورو (١٨١٧ — ١٨٦٢ م) شاعر وكاتب مقالات أمريكي . تغلب الفردية على تفكيره . كان صديقاً للفيلسوف الأديب « أمرسون » ، تأثر غاندي وقادة الحركة العمالية في بريطانيا بكتاباته . حرر بمجلة « ألديال »، وقضى عامين في كوخ في بحيرة « وولدن »، ومن هذه التجربة التي مر بها خرج بأشهر كتاباته « بحيرة وولدن » ١٨٥٤ م الذي يصف فيه حياته في هذه المنطقة ويدون مذكراته وهو في حياة العزلة هذه . ومن مؤلفاته « رحلات » ١٨٦٣ م، و « كيب كود » ١٨٦٥، و « أمريكي في كندا » ١٨٦٦م، دافع عن قيمة الفرد في المجتمع . (المعرب)

الساتياجراها .. أو الاصرار على الحقيقة

وفي عام ١٨١٨ وجد أن كل ما نادى به من إصلاح وتقويم ليس أكثر من حبر على ورق ، الأمر الذي دفعه إلى التفكير الجدي في تنظيم حركة المسماة بـ « ساتياجراها » ، وتعنى حرفياً « الاصرار على الحقيقة » ، وعرفها غاندي قائلاً « إن الساتياجراها بعيدة عن المقاومة السلبية بعد القطب الشمالي عن الجنوبي ، فالمقاومة السلبية سلاح الضعفاء ولا تستبعد العنف كوسيلة لبلوغ الغاية ، أما الساتياجراها فهي سلاح الأقوياء ، وتستبعد استخدام العنف في أية صورة .

وسرَت « الساتياجراها » في الهند مسرَى النار في الهشيم ، وأعلن غاندي مبادئه الشهيرة ، « اللاتعاون » . . « اللاعنف » . . كما بشر بالعصيان المدني والثورة دون غضب ، وعدم الاستسلام للقوانين التي تسنها السلطات الجائرة . وتبلورت دعوته في مقاطعة العمل في الوظائف الحكومية ، ومقاطعة المحاكم الانجليزية والمدارس ، وخرج كل الأطفال من الفصول الحكومية . كما نادى بمقاطعة البضائع الأجنبية وحارب تجارة الخمر والأفيون ، وآخى بين الهندوس والمسلمين .

وأصبح غاندي الموجه الأول لسياسة الهند ، ولقبه أتباعه بالـ « مهاتما » وتعني « الروح العظيمة » . أما بالنسبة للانجليز فقد كان ذلك الرجل الأسمر الشجاع الذي يغزل بمغزله ، والذي يعيش حياة ناسك ومتقشف ، والذي هز الامبراطورية البريطانية بأسرها . . دون أن يطلق رصاصة . . وجربت السلطات اعتقاله ، فخلق منه السجن داعية وبطلاً أكثر من أي وقت مضى .

مسيرة الملح

وفي عام ١٩٣٠ م ، أعلن غاندي أنه سيرفض ، من الآن فصاعداً ، أن يدفع الضرائب الحكومية التي يفرضها البريطانيون . وجعل غاندي من ضريبة الملح موضوعاً دراميا ، حين قاد رهطاً من أتباعه وسار بهم حتى وصلوا إلى الشاطىء وطلب منهم أن يستخرجوا الملح من ماء البحر . . وكانت « مسيرة الملح » الشهيرة التي تسببت في سجنه مرة أخرى . . لكن

دعوة « اللاعنف » لم تكن لتتوقف باعتقاله . واستدعى غاندي من سجنه ليسافر إلى لندن على رأس وفد ليناقش قضية بلاده ، ولم يصل وفده إلى نتيجة ما . لكنه حين شعر بحسن استقبال الانجليز له ، وسمع تصفيقهم وهتافهم له وصل إلى نتيجة مفادها أن الهند لا بد أن تبقى صديقة لبريطانيا ، ما دامت لا تستطيع صداقة الحكومة البريطانية .

ومضى غاندي يحارب من أجل تحرير بلاده ، وقاد حملة عصيان مدني أخرى قادته إلى السجن ، فأعلن إضرابه عن الطعام حتى الموت ، وأسقط في يد بريطانيا ، فلم تكن تستطيع أن تدعه يموت بين يديها ، وكان لا بد أن تطلق سراحه .

وحينما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، أصبح غاندي أكثر قرباً وارتباطاً بالعمل السياسي . وطلب من مواطنيه مساعدة بريطانيا ، كرها منه للنازية ، وفي نفس الوقت طالب انجلترا بأن تمنح الهند استقلالها. ورفضت لندن أن تعطي كلمة بهذا الخصوص ما دامت الحرب دائرة . ولم ينتظر غاندي ، وبمعاونة بانديت نهرو — ساعده الأيمن — شرعا في تحدي القوانين التي تمنع إلقاء الخطب التي تهدف إلى عرقلة النشاط الحربي . وسجن الرجلان بتهمة تحريض الأهالي على عصيان القانون وعلى عدم تعاونهم مع مصانع الذخيرة وكذا عصيان التجنيد وقطع المساعدات المادية .



غاندى فى مشغله



غاندى مع مساعده الهندى العظيم طاغور

وسرعان ما غصت السجون بأتباع غاندي .

وهدأت الحرب لتسود الهند موجات عارمة من الفوضى والشغب ، وطالب غاندي بالاستقلال الفوري ، وسجن وصام وناور وبشر بمبادئه وطالب بالوقوف إلى جانب انجلترا ضد ألمانيا وشجب الادارة البريطانية في شبه القارة ، واختلف مع المسلمين وبعض من أتباعه على مستقبل الهند .

وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء ، وأعلنت حكومة العمال البريطانية أنها ستمنح الاستقلال للهند ، كما ستمنح ولاية باكستان الإسلامية الاستقلال أيضاً . وكره غاندي فكرة التقسيم . . . ولكنه وافق عليها في النهاية كأفضل حل متاح ، وقال : « التقسيم فكرة سيئة ، ولكن مهما كان الماضي فعلينا أن نفكر في المستقبل فقط » .

الاستقلال دون عنف

وفي ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ أصبح استقلال الهند حقيقة وواقعاً وحيّا فيكونت مونتباتن ، الحاكم الجديد، غاندي الذي حقق استقلال الهند دون عنف . أما غاندي فقد احتفل بلحظات الانتصار على كرسي خشبي في كلكتا بعيداً عن الاحتفالات التي عمت الهند ابتهاجاً بالاستقلال . وأعلن غاندي أنه سيعيش مع الأقلية الهندوكية في باكستان .

ولقد صاحبت تقسيم الهند موجات عنف وصدام ، أسفرت عن قتل وجرح أعداد لا تحصى ، وأعلن غاندي أنه سيضرب عن الطعام حتى تثوب كلكتا إلى رشدها .

وسرعان ما أثمر صيامه ، وهرع إليه آلاف المسلمين والهندوس وسلموا له سلاحهم وذخيرتهم وحتى سيوفهم التي استخدمت أثناء الاضطرابات .

ومضى غاندي إلى « نيودلهي » ليستأنف جهاده هناك بعد أن سادت الاضطرابات والصدام على ضفاف البنجاب . وناشد غاندي المسلمين وغير المسلمين أن يعيشوا متحابين . واعترافاً من الهند بما قام به غاندي فقد أعلن يوم ميلاده (الثاني من أكتوبر) عيداً قومياً . وطبقاً للمعتقدات الهندوكية التي تضيف عاماً إلى عمر الوليد يوم ميلاده ، فقد كان عمر موهنداس

غاندي وقتذاك ٧٩ عاماً . وفي الثاني عشر من يناير عام ١٩٤٨ شرع غاندي في الصيام وناشد السيخ والهندوس والمسلمين أن يسود بينهم الحب والإخاء، ولم يدم صيامه سوى خمسة أيام فقط وعده الهندوس والمسلمون في دلهي أن يعيشوا في سلام .

مــوت غــانــدى



وفي الثامن من يناير ، وفي الخامسة والربع بعد الظهر ، وبينما كان غاندي يمضي في طريقه وسط حديقة المليونير بيرلا . إلى المكان الذي سيصلي فيه بالناس تقدم منه أحدهم فرفع غاندي ساعديه الرقيقتين من على كتفي حفيدتيه « مانو ١٧ سنة » . و « أيفا ٢٠ سنة » وتوجه إلى الرجل بالتحية الهندوكية . . والتصقت راحتا يديه . ولامست أنامله أسفل ذقنه . وبينما الحشد يخلي الطريق للزعيم الروحي . تقدم منه شاب ووقف قيد خطوات منه ، وفجأة دوت ثلاث طلقات . ومال غاندي إلى الأمام قبل أن يسقط على الأرض مضرجاً بالدماء . . وأصابته رصاصة في صدره والأخريين في الجانب الأيمن من بطنه .

وساد الصمت الجميع برهة . كأنما الطلقات قد أصابتهم جميعاً . . وأفاقوا على المشهد المروع ، وراحوا يدفعون القاتل وهم في ذهول . . لم تنطلق صرخة . ولم يحدث صخب . الكل في وجوم . . وتقدم نائب القنصل الأمريكي الذي جاء يشهد الصلاة للمرة الأولى . . تقدم وقبض على الرجل . . وكأنما دب في الحشد الحياة . . فانهالت الأيدي والأقدام تضرب الرجل .

وحمل الرفاق غاندي إلى غرفته التي كان يأوي إليها . ولم تمض بضع دقائق حتى فاضت روحه .

وفي اليوم التالي حمل جثمانه من « نيودلهي » إلى ضفاف نهر جوما المقدس ليحرق . . وهناك ذروا رماده على نهر جوما ليمتزج في النهاية بمياه نهر جانجز عند معبد مدينة « الله آباد » حيث يلتقي النهران .

مات غاندي ومضى بعد أن ترك أعظم أثر في تاريخ الهند . . الهند التي قبلت مختارة أن تكون عضواً في الكومنولث البريطاني ! !

طرابلس الغرب

في العهد العثماني الاول

بقلم : نجم الدين الكيب

عندما كانت مدينة طرابلس ترزح تحت حكم فرسان مالطا قامت محاولات جادة من قبل الأهلين بتاجوراء للتخلص من سيطرتهم وتحرير المدينة من قبضة أيديهم ، ولكن العدو الذي كان يتلقى مساعدات كثيرة لترسيخ قدمه هنا من قبل القوى المسيحية في أوربا ظل صامداً أمام تلك المحاولات التي قام بها الأهلون بصورة منفردة ، ومن هنا اتجهت النية وقتئذ للاستعانة بالعثمانيين لإنقاذ المدينة وتحريرها من نير الاحتلال ، وفعلاً فقد تم في عام ٩٢٦ هـ ١٥١٩ م إرسال بعثة من أهالي تاجوراء قصد دراسة الموقف وطلب المساعدة ، ويبدو أن تلك البعثة لم تجد مطالبها الأساسية هناك رعاية جدية من قبل السلطان ، وإن حاول الأخير أن يبدي شيئاً من الاهتمام عندما أسند بحث هذه القضية إلى — مراد آغا — أحد خدام القصر ، وكان يجيد التكلم باللغة العربية ، ويبدو أن الأخير قد لعب دوراً محسوساً في إقناع السلطان بمساعدة الطرابلسيين والخروج بهم من محنتهم ، ولكن حجم تلك المساعدات التي وافق عليها السلطان آخر الأمر لم تكن لتتلاءم مع حجم تلك القوة التي يتلقاها فرسان مالطا من مختلف المصادر المسيحية المتألبة على الاسلام في أوربا .

غير أن مراد آغا الذي كلف بمهمة تحرير طرابلس من قبل السلطان قد أخذ يمارس حرباً تشبه حرب العصابات في بداية الأمر ، وذلك بواسطة ما تأتى له من أسباب القوة لخوض المعركة مع الخصم الرابض على أرض المدينة ، ولا بد وأن الطرابلسيين كانوا يشكلون الطلائع الأولى لخوض هذه الحرب التي فرضها عليهم العدو المحتل لبلادهم . ويبدو أن هذه المرحلة من مراحل حرب التحرير كان لا بد منها قبل دخول حلبة الصراع الحقيقية مع فرسان مالطا ، فقد عمل مراد آغا بمهمة الرجل المحارب في تهيئة الأهلين ليوم التحرير ، وأخذ بمساعدتهم يبني الحصون ، وتمركز في عدة نقاط في مواجهة المدينة ، غير أن تلك الاستعدادات لم تكن بقادرة على مجابهة حقيقية مع العدو ، ومن هنا فقد استمر الوضع على حالته

الأولى دون إحراز أي تغيير يذكر في الموقف العسكري . وقد دأب مراد آغا يعمل على الجبهة السياسية ، ويبدي المحاولات تلو المحاولات لإقناع ــ السلطان ــ باسطانبول بزيادة حجم الامدادات العسكرية وإدخال عنصر جديد في المعركة بتوظيف جزء من القوة البحرية لمصلحة حرب التحرير في طرابلس، غير أن الأسطول العثماني في البحر الأبيض المتوسط كان مشغولاً بمعركة التحرير في المهدية وجزيرة جربة ، ولعل انتهاء المعركة بالنصر للأتراك شجعهم على الالتفات إلى طرابلس للمساهمة في معركة التحرير التي بدأها الطرابلسيون منذ من بعيد.

وبعد أقل من عام من معارك المهدية وجربة بتونس كانت تلك القوة المظفرة بقيادة الربان درغوث باشا قد التفت حول مدينة طرابلس وبدأ في فرض حصار عليها من البر والبحر ، وبرزت في هذه الفترة أهمية تلك الاستعدادات التي قام بها الطرابلسيون بقيادة مراد آغا في هذه الحرب التحريرية ، بل لا بد وأن تلك الاستعدادات قد لعبت دوراً رئيسياً في تلك الحرب ، ولم يستطع فرسان مالطا الصمود طويلاً في مواجهة ذلك الحصار الذي فرض عليهم من البر والبحر فاستسلموا وتحررت بذلك المدينة من نفوذهم وسيطرتهم اللذين داما قرابة العشرين عاماً ، ومن ثم فقد دخلت طرابلس بشكل رسمي في ظل الحكم التركي حيث أصبحت تدار من قبل والٍ يعين بفرمان سلطاني توكل إليه مهمة إدارة البلاد بواسطة بعض الموظفين ، وتؤمن له اسطانبول أعداداً من الجنود لمساعدته في إقرار الأمن وجباية الضرائب .

هذه مقدمة لا بد منها لمعرفة الظروف التي نشأت فيها أولى اللمسات العمرانية ــ ذات القسمات التركية ــ على صفحة الحياة الليبية . فبعد أن تم جلاء فرسان مالطا عن البلاد كان مراد آغا قد أخذ زمام المبادرة في وضع اللمسات العمرانية الأولى في تاجوراء عندما أسس فيها أثناء مرابطته بها حصناً صغيراً هو بمثابة مركز أمامي فيما بينها وبين طرابلس ، كما حفر بئراً للسابلة على الطريق المؤدية إلى طرابلس غير أن أهم البصمات للفن التركي الاسلامي قد وضعت بالجامع والمدرسة التي بناهما بتاجوراء . وكانت هذه الجهود العمرانية التي قامت على عهد مراد باشا ذات أهمية خاصة باعتبارها البداية الأولى للدخول في نقلة جديدة من الحياة العمرانية التي تعمق مجراها بقدر ما سمحت به معطيات المرحلة الأولى للحكم العثماني في ليبيا .

عندما تولى درغوث باشا (٩٦٤ ــ ٩٧٣) هـ . حكم إيالة طرابلس بدأت الأخيرة تشهد المظاهر الحقيقية للتعمير إذ نشطت الجهود في هذه المرحلة للاهتمام

بنواحي التحصين ، وبناء الاستحكامات ، وإصلاح الميناء وجعله في غاية المتانة كما توافرت بعض جهوده على ناحية التسوير والتحصين ، ويبدو أنه قد أضاف الشيء الكثير على معالمه الأولى مما جعل البعض من المؤرخين يشيرون إلى جهوده هنا على أساس أنها من أهم إصلاحاته . وفضلاً عما تمّ في عهده من المشاريع – سواء تلك التي أنجزت في مجال التحصين أو تلك التي تمت في مجالات أخرى تتصل بتجميل مدينة طرابلس – فقد قام إلى جانب ذلك ببناء الجامع الذي يحمل اسمه حتى الآن ، وقد أشرنا إليه في المكان المناسب في هذا المكان .

ومن الواضح أن العهد العثماني الذي بدأ بداية حسنة من حيث أنه قد شجّع على أعمال الاصلاح والتعمير ، إلا أن تلك البداية لم يكتب لها الاستمرار ، فقد كانت البلاد تصاب بنكسات من جراء وضعها تحت إدارة ولاة ضعاف لا يأبهون بشيء أكثر من مطالبتهم للأهلين ومختلف فئات الشعب بالمزيد من الضرائب

ومن الواضح أن العهد العثماني الذي بدأ بداية حسنة من حيث أنه قد شجّع على أعمال الاصلاح والتعمير ، إلا أن تلك البداية لم يكتب لها الاستمرار فقد كانت البلاد تصاب بنكسات من جراء وضعها تحت إدارة ولاة ضعاف لا يأبهون بشيء أكثر من مطالبتهم للأهلين ومختلف فئات الشعب بالمزيد من الضرائب وإرهاقهم بالكثير من الواجبات ، وليس هنالك في المقابل ما يمكن أن نسميه بالرعاية الحكومية أو بسط يد النعمة على عاملة الناس ، ففي الكثير من الأحوال كان الولاة يلجأون إلى العنف في إقرار مطالبهم الجائرة ، وعندما تقوم بين الأهلين صيحات المعارضة لما يلقى على كاهلهم من ألوان الضرائب يسلطون عليهم الجنود حيث يطلقون أيديهم في أرزاقهم فيسرقون أنعامهم ويستولون على أموالهم بالقوة وبلا وجه حق .

وقد ظل العثمانيون – وهذا حالهم في كل مكان أحلّوا فيه أنفسهم – أقليةً «مسيطرة في مملكتهم الواسعة دون أن يقوموا بأي محاولة لاستعمار الأراضي في البلاد العربية » (١) ، فقد كانت طريقتهم هي أن يلجأوا إلى أقرب الوسائل للوصول إلى غاياتهم في جمع الضرائب ، وقد كان ضعف الادارة في بلاد مترامية الأطراف تتخللها صحراوات شاسعة واسعة أمراً يتطلب جهوداً كبيرة يمتصّ الشيء الكثير من الطاقات التي يمكن استغلالها في الجانب الآخر فيما ينفع البلد ، زد على هذا أن هناك على التحقيق تبديد للأموال المحصلة من أرزاق الشعب إذ كان الحكام المعينين في خدمة « ألوية طرابلس يسببون خسارة للخزينة باستيلائهم على واردات المناطق بالاضافة لمرتباتهم » (٢) ، ويعني هذا أنهم – أي ذلكم

الحكام – في الوقت الذي تشكل فيه رواتبهم عبئاً ثقيلاً على موارد الولاية يزيدون الأمر سوءاً عندما يسمحون لأنفسهم باقتسام ما تبقّى من فائض الدخل. وكانت النتيجة الطبيعية لمثل هذا التصرف أن تتبدد الأموال العامة بين جيوب الولاة وجنودهم الانكشاريين. وبالتالي تتردى همة التعمير بحيث لم يتحقق منها إلا الشيء القليل.

ويتضح من هذا أن البلاد كانت تعيش تحت ظروف إدارية سيئة في الغالب بحيث لا تكاد تسمح بظهور فرص حقيقية للتعمير أو الاصلاح. ولكن مع ذلك فقد كانت همة بعض الأفراد من الولاة تسمح بقيام إنجازات ذات طابع شخصي ينمّ عن ميل لعمل الخير، وقد تركّزت هذه الانجازات في بناء المرافق العامة وتشييد دور العبادة، وكانت هذه – على مر السنين – قد أفلحت في تعميق ذلك التيار العمراني الذي نما مع العهد العثماني الأول وبدأ يعلن عن نفسه في حاضرة طرابلس على وجه العموم.

ومن الانصاف أن نذكر هنا بأن العثمانيين قد أحدثوا بمرور الوقت لمسات عمرانية ذات سمات خاصة في حاضرة طرابلس، وقد كانت هذه اللمسات من الأثر بحيث ساد طابعها العام كل ما عداها. وإذا كانت آثارهم العمرانية هي أقل مما كان للمرء أن يتوقع خصوصاً إذا أخذنا في اعتبارنا القرون الطويلة التي بقيت فيها ليبيا تحت حكم الأتراك – إلا أننا لا يجب أن نقلل من أهمية ما أنجزوه من أعمال تتصل بالنشاط العمراني في مدينة طرابلس. بل نستطيع القول بأنه لا يمكن للمرء أن يتصور بأن الأمور ستكون أفضل مما تحقق فعلاً في عهدهم.

وقد يبدو أنه من الأجدر بنا الوقوف على ما تم في العهد القره مالي (١٧١١ – ١٨٣٥) من نشاط يتصل بنمطية الحياة العمرانية في عهدهم أسوة بما فعلنا في العهود الأخرى التي مرت بمدينة طرابلس لولا أننا نرى بأن العهد القره مالي لم يكن في الحقيقة إلا امتداداً لنمطية الحياة العمرانية التي ألفناها في العهد التركي الأول، ومع ذلك فأهم أعمالهم قد تعرضنا إليها في الأقسام التالية من هذا الكتاب خصوصاً تلك التي عقدناها على دراسة القلعة والسور والجوامع. ونظنها كافيا لإعطاء صورة تبرز معطياتهم بشكل أكثر تفصيلاً.

---

(١) تاريخ العرب جـ٢ ص ٨٤٣ د. فيليب حتي – د. ادورد جورجي – د. جبرائيل جبور.

(٢) الأتراك العثمانيون في شمال افريقيا – عزيز سامح – ترجمة.

قصة قصيرة

ترنيمة المهد

غفل

للكاتب الروسي

مكسيم جوركي

ترجمة

● عبد الله لطفي صالح

في إحدى ليالي الصيف ، أدت بي قدماي إلى زقاق بعيد في ضاحية من ضواحي المدينة ، حيث شاهدت منظراً غريباً لامرأة تقف وسط مستنقع كبير ، تغوص في وحله ، وتقذف بطينه كما يفعل الأطفال الصغار .

وكانت قد هبت أثناء النهار عاصفة هوجاء على المدينة ، فأحال انهمار الأمطار المتواصل ، تربة أرض الزقاق إلى أوحال . وكان المستنقع عميقاً والمرأة تغوص فيه إلى ركبتيها . واستطعت أن أتبين من صوتها أنها ثملة ، لذا فهي عرضة — إذا أتعبها رقصها — لأن تزلق قدمها وتغوص في الماء الموحل . نزعت حذائي الطويل ، وسرت إلى المستنقع ، فأمسكتها من ذراعيها ، وسحبتها إلى بقعة جافة . . وفي بداية الأمر بدا عليها الفزع ، واتبعتني طائعة دون أن تنبس ببنت شفة ، لكنها حركت ذراعها اليمنى فجأة بحركة قوية ، ولطمتني على صدري مولولة :

— أغيثوني . .

ثم اندفعت إلى المستنقع ثانية ، وهي تسحبني معها . وصرخت قائلة :
– لن أذهب إلى الشيطان . سأعود بمفردي . . اذهب وحدك . . اغيثوني .
فبرز خفير الليل من الظلام ، ووقف على بعد خمس خطوات منا ، مستفسراً في نبرة جافة :
– من هناك يحدث تلك الضوضاء ؟
فأخبريه أني خشيت على المرأة من الغرق ، فأردت انتشالها من الماء . فبصق الخفير بصوت مرتفع وهو يمعن النظر في المرأة الثملة ، ثم صاح آمراً :
– ماشكا ، اخرجي .
– لن أخرج .
– إني آمرك أن تخرجي .
– وأنا لن أطيع لك أمراً .
فقال الخفير متوعداً إياها دونما عداء:
– سأعطيك علقة ، أيتها القذرة .
ثم توجه إلي قائلاً بلطف :
– اسمها ماشكا ، وهي تقطن هذه الناحية ، وتعيش من جمع الخرق البالية « ولع » .
فأشعلنا لفافتين ، بينما كانت المرأة تمخر بجسارة عبر المستنقع ، وهي تصيح بين الحين والآخر :
– قوادون . . حتى أنا قوادة . . سأستحم هنا ، إذا أردت . .
فأنذرها الخفير قائلاً :
– سأعطيك حماماً .
وتحول إلى الخفير ذو اللحية الطويلة والبنيان القوي ، قائلاً :
– هذا ما تفعله تقريباً كل ليلة ، بينما يرقد ابنها كسيحاً في بيتها .
فسألته :
– أتقطن بعيداً عن هنا ؟
فقال ، دون أن يجيبني :
– يجب أن تضرب بالرصاص .
فقلت مقترحاً عليه :
– بل من الأوفق أن تحمل إلى بيتها .
فعطس الرجل في لحيته ، رافعاً لفافته إلى مستوى وجهي . ولم يلبث أن توارى في الطريق قائلاً :
– خذها ، ولكن انظر إلى وجهها أولاً .
حدث هذا ، بينما كانت المرأة جالسة في الوحل ، تجدف بيديها ، وتصيح بصوت أخن :
« في البحر العميق » .
وغير بعيد من مكانها ، كان الماء الموحل الزلق يعكس ضوء نجمة تعلقت بالفضاء الحالك المخيم علينا ، فكان لمعانها يتلاشى كلما تموج الوحل . خطوت إلى المستنقع ثانية ، وأمسكت بالمغنية من تحت إبطيها ، ورفعتها دافعاً إياها بركبتي ، وقدتها إلى السياج . ولكنها استدارت إلى ملوحة بذراعيها ، وتحدتني قائلة :
– حسناً اضربني ، اضربني ، لم يعد يهمني . إضربني ، أيها الوحش ، أيها الجزار . . استمر ، اضربني . .
فسألتها عن مسكنها ، بعد أن سندتها

على السياج . فرفعت رأسها الثمل وحدجتني بعينين غائرتين ، فلاحظت أن أنفها قد بتر وما تبقى منه يبرز أشبه بعروة ، أما شفتها العليا فقد شطرها جرح قديم ، وهي تكشف عن أسنان صغيرة ، وكان وجهها المحتقن يكتسى بابتسامة متمردة ، وقالت:

– حسناً . دعنا نذهب .

فسرنا ، محتمين بالسياج ، وطرف ثوبها المبتل يصفع ساقي باستمرار . وغمغمت كما لو أنها تنشج بالبكاء :

– تعالى ، يا حبيبي .

وقادتني إلى فناء دار كبير ذي طابقين . وسارت بين العربات ، والبراميل ، والصناديق ، وأكوام الحطب ، بحذر ، كأنها عمياء ، ثم توقفت عند فتحة في أساس الدار ، ودعتني قائلة :

– ادخل .

فنزلت الدرجات الزلقة أستند إلى الجدار ، قابضاً عليها من خصرها ، عاجزاً عن جمع شتات جسمها المبعثر ، وبحثت عن مزلاج الباب حتى وجدته ففتحته ، ووقفت – دون أن أجرؤ على التقدم خطوة أخرى – على عتبة بقعة حالكة ، ولم يلبث أن تسرب إلينا صوتاً ناعماً من الظلمة يسأل :

– هل أنت ماميَ ؟؟ أأنت يا مامي ؟

– إنها أنا يا حبيبي .

ونفذت إلى خياشيمي رائحة قطران وعفونة قوية . ثم أشعلت عود ثقاب ، اللهب الضئيل وجهاً طفولياً شاحباً ، لم يلبث أن تلاشى .

قالت المرأة ، وهي تترنّح عليّ :

– إنها أنا ، فمن سيأتيك غيري ؟

فأشعلت عوداً آخر ، رأيت على ضوئه الواهن « شخليله » من الزجاج ، ويداً مضحكة هزيلة تضيء مصباحاً من الصفيح .

قالت المرأة مترنحة :

– حبيبي ؟ ؟

ثم انقلبت في الزاوية رأساً على عقب حيث سرير متسع لا يرتفع عن الأرض الحجرية ، بينما انهمك الطفل يعالج الفتيلة التي أخذت تدخن وهو يراقب المصباح بتيقظ . كان وجهه صغيراً عابساً ، ذو أنف مستقيمة وشفتين مكتنزتين كشفاه البنات ، ولكأنما رسمت وجهه الدقيق فرشات فنان ماهرة . وكان تنافره مرعباً مع هذا الجحر المظلم الرطب . . وبعد أن أصلح المصباح حدجني بعينين طويلتي الأهداب حتى لكأنهما مملوءتين شعراً ، وقال :

– هل ثملت ؟ ؟

وكانت أمه ملقاة على الفراش تسعل وتتوجع ، فقلت :

– يجب نزع ملابسها .

فأرخى الصبي ناظريه وأجابني :

– افعل .

وبينما كنت أنزع رداءها المبتل ، سألني بهدوء وبلهجة عملية :

– والمصباح ؟؟ هل أخرجه ؟ ؟

– لما ؟ ؟

فلم يجب وشرعت أرقبه وأنا أعالج

أمه كزكيبة من الدقيق . وكان جالساً على الأرض في صندوق مصنوع من خشب ثقيل كتب عليه بحروف سوداء :

« تناوله بحذر . ن . ر . وشركاه » .

وكان مصراع النافذة المربع يحاذي كتف الصبي . وعلى طول الجدار قامت رفوف كثيرة ضيقة ، تكدست عليها علب السجائر والكبريت ، وبجوار الصندوق الذي يجلس فيه الصبي قام صندوق آخر غلف بورق أصفر باهت ، يبدو أنه يستخدم كمائدة . وكان الصبي يتطلع إلى زجاج النافذة ، بينما عقد يداه المؤسيتان المضحكتان خلف عنقه . . .

وبعد أن جردت المرأة ، ألقيت بملابسها المبتلة على الموقد . ثم غسلت يداي في وعاء غسيل أرضي في الزاوية ، وفيما أنا أجففهما بمنديلي ؛ قلت للطفل :

حسناً ، إلى اللقاء الآن .

فتطلع إلي ، وسألني بلثغة خفيفة تتخلل كلامه :

– هل أخرج المصباح الآن ؟

– إذا أشئت .

– وأنت – هل ستمضي ؟ ألن تذهب إلى الفراش ؟

ثم أشار بيده الصغيرة إلى أمه قائلاً :

– معها ؟

فسألته بدهشة ، وبنية صافية :

– لماذا ؟

فأجابني بسذاجة مخيفة :

– أنت ذاتك تعرف .

ثم أردف وهو يمد نفسه من الصندوق :

– كلهم يفعلون ذلك .

تطلعت حولي مرتبكاً . . إلى اليمين فوهة موقد كئيب عليه أطباق قذرة ، وفي الزاوية خلف الصندوق قطع من حبل قديم ومجموعة من الخرق البالية ، وقطع من الحطب ، وقطعة خشب تستعمل لحمل جرادل الماء . وعند قدمي تمدّد جسد شاحب يغط في النوم . .

– سألت الصبي :

– أيمكنني أن أجلس معك قليلاً ؟؟

فحدجني من تحت جفنيه ، قائلاً :

– ولكنها لن تستيقظ قبل الصباح ؟

– لست في حاجة إليها .

وجلست بجوار صندوقه أقص عليه كيف التقيت بأمه ، وأنا أحاول تمثيل الأمر بشكل يثير الضحك أمامه :

– كانت جالسة في الوحل ، تجدف وتغني . .

ابتسم ابتسامة شاحبة ، وأحنى رأسه، ثم خمش صدره قائلاً :

– لا شك أنها كانت ثملة ، فهي عندما تفعل ذلك تحب أن تحمل كالطفل تماماً .

واستطعت في هذه اللحظة رؤية عينيه بوضوح . كانت أهدابه طويلة وطفاء ، ويغطي جفونه بكثافة شعر صغيرة ، جليل ومقوس ، وتحت عينيه ظلال تميل إلى الزرقة . . أما بشرته فقد كانت شاحبة ممتقعة ، وجبهته ذات تجعيدة فوق أنفه ، يتوجها خصلة كستنائية متماوجة من الشعر .

ويعجز عن الوصف ذلك التعبير الكامن في عينيه الذي يجمع بين الهدوء واليقظة . كان صارماً حتى شعرت بالضيق من هذه النظرة اللاإنسانية الغريبة – سألته :

– ماذا أصاب قدميك ؟

فتحسس الحرق ، وأظهر ساقاً أشبه بعنق الكرنبة ، ثم رفعها بيده ، ووضعها على حافة الصندوق . .

– إنهما كما ترى ، كلتاهما لا يريدان السير منذ أن ولدت ، إنهما كما ترى ميتتان .

– وماذا يوجد في هذه العلب ؟

رفع ساقه كأنها عصا ، ثم وضعها بين الحرق على قاع الصندوق ، وأجابني :

– إنها معرض . .

ثم عرض علي بابتسامة مخلصة هادئة قائلاً :

– أأريك إياها ؟ ؟ استرح .. انك

وبدأ يزيح العلب عن الرفوف بحركات مقتدرة من يديه الطويلتين ، ويناولني إياها الواحدة تلو الأخرى ، ثم قال :

– خذ حذرك فلا تفتحها وإلا طارت .. ضع واحداً على أذنك واصغ ، ما رأيك ؟؟

– أسمع شيئاً يتحرك .

– آه ، فيها عنكبوت ، يا له من وغد، انه رشيق واسمه درمر . .

وتلاعبت على وجه الصبي الحي ابتسامة رقيقة ، وازدادت عيناه الرائعتان حياة ورقة . ثم عاد بحركاته المقتدرة يزيح العلب من على الأرفف ليضعها على أذنه في بادىء الأمر ثم يناولني إياها ، وهو يحدثني بحرارة :

– هذا « انزيم » الصرصار وهو وسيم كجندي ، وهذه ذبابة ، حشرة شريرة ، وأسوأ مخلوقة ، إنها امرأة المفتش فهي تطن طول النهار وتلعن الجميع ، بل لا تتورع عن جذب مامي من شعرها . إنها ليست ذبابة بل زوجة المفتش ، ولها نوافذ في حجرتها تطل على الطريق . . وهذا صرصار اسمه « السيد » كبير الحجم وأسود . انه طيب ، لكن يعيبه سكره ووقاحته ، فهو يعود ثملاً ليدب في الفناء عارياً أشعثاً ككلب أسود . وهاك صرصار آخر اسمه العم « نيكوديم » اصطدته من الفناء ، إنه حاج غشاش ، يتظاهر بمساعدة الكنيسة ، ويعشق مامي وهي تدعوه « بالغشاش » . . إن عشاق مامي أكثر مما تستطيع عدهم ، يفوقون العدد كالذباب مع أن لا أنف لها .

– ألا تضربك ؟ ؟

– هي تضربني ؟ ؟ انت أبله . إنها لا تحيا إلا بي . . إن لها قلباً حنوناً ، وهي جميلة ومنطلقة . . لكن عيبها الوحيد هو السكر ، فيا لها من بلهاء . . لقد قلت لها ، كفي عن جرع الفودكا وأنت تصبحين من الأثرياء يا عبيطة ، فسخرت مني . إنها امرأة غبية بالتأكيد ، ولكنها بيضة طازجة . حسناً ، سوف تكشف عنها لترى بنفسك . .

كان يبتسم بسذاجة لامبالية تجعل المرء يجأر بشفقة مرة محرقة عليه . . وكان رأسه

الجميل يترنّح على عنقه الهزيل كزهرة غريبة ، وتشعّ عيناه بالحياة ، وتشدني بقوة لا أستطيع لها دفعاً .. فنسيت في إصغائي لحديثه الطفولي المرعب أين أنا . ولكني أبصرت فجأة نافذة السجن الصغيرة، ملطخة بالوحل من الخارج ، وفوهة الموقد السوداء ، وكومة الخرق البالية في الزاوية، وجسد الأم المتراكم على الخرق ، أصفر كالزبد ، قرب الباب .

سألني الصبي مزهواً :

– أليس معرضاً جميلاً ؟ ؟

– جميل جداً .

– ولكن ليست لدي أية فراشة ، أو سوسة ..

– ما اسمك ؟

– لنكا .

– إن لك نفس اسمي .

– حقاً ؟؟ وأي أنواع الرجال أنت

– ولا نوع .

– أوه . كاذب . أنا أعرف أن كل إنسان من نوع ما .. إنك رفيق طيب .

– ربما .

– أوه ، يبدو لي أنك قطة رعديدة .

– ما الذي يجعلك تقول ذلك ؟ ؟

فابتسم بدهاء ، بل غمز لي بعينيه .

– أوه ، أنا أعرف .

– لماذا تظن ذلك ؟ ؟

– حسناً ، بقاؤك معي هنا ، يؤكد أنك تخاف العودة ليلاً إلى منزلك ..

– ولكن الفجر يشرق .

– لذا أنت ذاهب .

– سأعود ثانية .

فأغلق عينيه الجميلتين بأهدابه ، ولم يصدقني ، ثم قال بعد برهة :

– لماذا ؟ ؟

– لمجرد أن أراك فقط . فأنت شخص مهم . هل أستطيع المجيء ؟؟

– بالتأكيد ، فكل شخص يأتي هنا ..

ثم أردف متنهداً :

– إنك تخدعني .

– أقسم على أنني سأحضر .

– فلتأتي . تأتي لتراني أنا لا مامي . ليأخذها الشيطان ، لنكن أصدقاء .

– لنكن .

– حسن جداً ، وليس من الأهمية أنك كبير ، كم عمرك ؟؟

– عشرون .

– وأنا إحدى عشرة . وليس لي أصدقاء إلا « كاتكا » ابنة السقا التي تضربها أمي لأنها تحضر لتراني .. أأنت لص ؟؟

– كلا ، لماذا لص ؟؟

– إن وجهك نحيف هزيل كما يشبه أنفك أنف اللص .. إن اثنان من اللصوص يأتيان دائماً . إحداهما يدعى « ساشكا » وهو غبي قذر ، أما الآخر فهو « فانيشكا » عطوف ، عطوف مثل الكلب . ألا توجد لديك علب صغيرة ؟؟

– سأحضر لك بعضاً منها .

– أحضرها ، ولن أخبر مامي أنك ستأتي .

ـ لماذا ؟
ـ لن أخبرها ، لأنها تفرح دائماً بمجيء الرجال ، ولست أدري لماذا تحبهم هذه القذرة . إن مامي فتاة مهرجة ، وقد دبرت أمر الحصول علي وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، وهي نفسها لا تعرف كيف حدث هذا . متى ستجيء ؟
ـ غداً مساء .
ـ في المساء ؟؟ ستكون ثملة عندئذ . وماذا تعمل ، ما دمت لست لصاً ؟؟
ـ أبيع « الكفس البافاري » .
ـ حسناً ، أحضر لي زجاجة ، هل ستحضر ؟؟
ـ سأحضر بكل تأكيد . حسناً ، يجب أن أرحل .
ـ اركض إذن ، هل ستحضر ؟؟
ـ بالتأكيد .
ـ بالتأكيد .
فمد لي كلتا يديه الطويلتين ، فضغطت تلك العظام الناحلة المتجمدة برداً ، ثم تسللت إلى الفناء نصف ثمل دون أن أنظر خلفي .
كان الفجر يبزغ ، وفينوس ترتعش متلاشية فوق كومة الأبنية الرطبة المتداعية ، وكان زجاج نافذة القبو يحدجني بعيونه المربعة القاتمة كعيون السكارى . وكان فلاح ذو وجه أحمر ينام في عربة بجوار البوابة ، وقدماه الكبيرتان متباعدتان ، وذقنه الكثيفة المشعثة تواجه السماء ، وأسنانه البيضاء تلمع . ولاح لي كما لو أنه يضحك ساخراً بعينيه المغلقتين . وتبعني كلب عجوز ذو بقعة جرباء على ظهره يبدو أنها نتيجة ماء يغلي ، وتشمم ساقي ثم عوى بلطف وجوع فامتلأ قلبي شفقة عقيمة عليه . وانعكست شمس الصباح الوردية الشاحبة على المستنقعات الراكدة ، فتركت انعكاساتها جمالاً لا لزوم له ، بل مهيضاً يقبض النفس ، على المستنقعات القبيحة . . .
وطلبت في الغد من الأولاد حيث أعمل أن يصطادوا بعض الفراشات والحشرات ، وابتعت علباً صغيرة أنيقة من الصيدلي ، ثم ذهبت لرؤية « لنكا » ، حاملاً معي زجاجتين من الكفس ، وبعض الكعك والحلوى المسكرة . وتقبل لنكا هداياي مذهولاً ، فاتحاً عينيه الجميلتين اللتين كانتا أجمل وأروع في ضوء النهار . . وصاح بصوت لا أثر للطفولة فيه :
ـ أوه ، أوه ، أوه ، لقد أحضرت كل الأشياء . هل أنت ثري ؟؟؟ كيف ذلك ؟؟ وملابسك رثة ، وتقول إنك لست لصاً . . والعلب الصغيرة ؟؟ أوه . أوه . أوه . إنه لمن المخجل أن ألمسها ، فليست يداي نظيفتين . من يوجد هنا ؟ آها ، صرصار يشبه الخوذة ، ولونه أخضر أيضاً ، أوه ، أيها الشيطان . وهل هي تهرب وتطير ؟؟ يا إلهي .
ثم صاح فجأة بمرح :
ـ مامي ، تعالي اغسلي لي يدي ، وانظري ، أيتها الإوزة ، ما أحضر لي . إنه نفس الرجل الذي حملك كالشرطي

إلى هنا الليلة الماضية . إنه نفس الرجل واسمه لنكا أيضاً .

فسمعت خلفي صوتاً هامساً يقول :

– يجب أن تقدم له الشكر .

فأحنى الصبي رأسه بسرعة قائلاً :

– أشكرك ، أشكرك .

كان القبو معبقاً بسحابة من غبار دقيق كثيف ، فاستطعت أن أتبين بصعوبة رأس المرأة الأشعث ، ووجهها المشوه ، وأسنانها الملتمعة ، وابتسامتها المقهورة دوماً. قلت :

– كيف حالك ؟

– كيف حالك ؟

أجابت المرأة وهي تلوك كعك الزنجبيل بصوت مسموع ، وبينما كان لنكا يفتح العلب بحرص ألقت أهدابه الوطفاء ظلاً جعل الدوائر المحيطة بأسفل عينيه تزداد ، وهنا اختلست الشمس طريقها عبر زجاج النافذة الملطخ ، وهي تبدو ثقيلة الظل كوجه عجوز ، فسقط ضوء واهن على شعر الصبي الضارب إلى الحمرة . وكان قميصه مفتوحاً ، يكشف عن صدره ، فرأيت كيف يخفق قلبه خلف العظام الناحلة ، دافعاً البشرة والحلمة التي لا تكاد ترى .

ونزلت أمه من على الموقد ، ثم بللت خرقة في حوض الغسيل . وأقبلت على لنكا وتناولت يده اليسرى ، فصاح :

– لقد هرب . امسكه . هرب .

وأخذ يندفع بجسده كله من الصندوق ملقياً الخرق القذرة جانباً ، معرياً رجليه الزرقاوين اليابستين وضحكت المرأة وهي تعبث بين الخرق صائحة مثله :

– امسكه . .

وبعد أن أمسكت الصرصار ، وضعته على راحة يديها وأخذت تتفحصه بعينيها النابضتين بالحياة ، واللتين يحاكي لونهما لون زهرة القمح . وقالت برقة بالغة :

– أيوجد كثير منه ؟؟

فأنذرها الصبي بشدة قائلاً :

– إياك وسحقه . . فقد نملت ذات مرة وجلست على معرضي ، فسحقت أغلب ما فيه .

– حاول أن تنسى ذلك يا حبيبي .

– إن علي أن أقوم بعمليات دفن كثيرة.

– ولكني أمسكت لك كثيراً غيرها.

– ضيرها . يا بلهاء . . إن ما سحقته كان مروعاً ، وقد زحفت تحت الموقد لأدفنه ، فأنت تعرفين أن لدي مقبرة هناك وكان عندي عنكبوت يدعى « منيكا » أشبه بأحد عشاقك ، أعني ذلك الرجل السجين ، السمين المرح .

فقالت المرأة وهي تربت خصلات شعره بيد سمراء صغيرة ذات أصابع بضة :

– أوه ، يا حبيبي الوحيد .

ثم لكزتني بكوعها ، وهي تسألني وعيناها تبتسمان :

– أليس ابني الصغير جميلاً ، أرأيت هاتين العينين ؟

فاقترح عليها لنكا مبتسماً وهو يفحص

صرصاراً :

– لك مثلهما ، ولكن اعطيني فقط قدمين .. انه قوي وسمين جداً . إنه يشبه الراهب التي صنعت له السلم .. يا مامي أتذكرين ؟؟

– أذكر فعلاً .

وقصت علي ما يلي وهي تبتسم :

– أتى راهب إلى هنا ذات مرة ، وهو رجل ضخم سمين ، وقال : انصتي : أنت تجمعين الخرق ، أفلا يمكنك أن تجدي لي سلماً من الحبال ؟؟ ولما لم أكن قد سمعت عن أمثال هذه السلالم من قبل ، فقد أجبته : لا ، لا يمكنني . فقال : سأعلمك إذن . وفتح عباءته فرأيت حبلا طويلاً متيناً يلتف حول بطنه ، وعلمني . وصنعته وأنا أحدث نفسي : ولكن ما حاجته إليه ؟؟ ربما يريد سرقة الكنيسة ..

وضحكت ، وهي تحتضن ابنها ، وتربت عليه طول الوقت ثم قالت :

– آه من هؤلاء القوم الماكرين ، فقد أتى في موعده ، وقلت له : هاك الحبل : فإذا كنت تريد السرقة به فلا شأن لي بك . فضحك بخبث وقال : لا ، هذا لتسلق الحائط .. فلدينا سور هائل الارتفاع ونحن جماعة من الخطأة ، والخطيئة توجد داخل الدير كما توجد خارجه – أفهمت ؟؟ حسناً ... وقد فهمت فقد احتاجه ليذهب إلى امرأة ليلاً . وقد ضحكنا سوياً فيما بعد .

فقال الصبي :

– لا شك أنك تحبين الضحك ، ومن الأوفق لك أن تشعلي النار تحت الساموفر .

– لكن لا يوجد لدينا سكر .

– اذهبي واشتري بعضاً منه .

– ليست لدينا نقود .

– كل هذا لأنك سكيرة ، خذي شيئاً منه .

ثم استدار إلي قائلاً :

– أعطني بعض النقود .

فنقدت المرأة بعضها ، فقفزت على قدميها ، وتناولت ساموفراً قذراً من على الموقد ، وتوارت خلف الباب ، محدثة صوتاً من أنفها . ولكن صاح الصبي في أثرها :

– مامي ، نظفي الشباك ، فلا يمكنني أن أشاهد شيئاً . إنها في الحقيقة بضاعة صغيرة أنيقة .

ثم أردف وهو يرتب علب الحشرات بعناية على الأرفف التي كانت عبارة عن قطع من الكرتون مستقرة على خيوط تمسكها مسامير مثبتة فيما بين أحجار الحائط من ثقوب :

عندما تبدأ في جمع الخرق البالية تثير غباراً يكاد يخنقني فأصيح .. احمليني يا مامي إلى الفناء أولا فإني سأختنق هنا . ولكنها تقول : صبرك فسأكون وحيدة بدونك ، فهي كما ترى تحبني ، وهذا كل ما في الأمر .. فهي تجمع الخرق وتغني وتعرف آلاف الأغنيات .

وأخذ يغني ، رافعاً حاجبيه الكثيفين ،

وعيناه العجيبتان تلمعان ، وقد استبد به الاهتمام :

« أرينا ترقد على فراش من الريش »

فأصغيت قليلاً ، ثم قلت :

– إنها أغنية قذرة جداً .

فقال لنكا مؤكداً :

– كل الأغنيات من هذا النوع . ها هي ذي الموسيقى . استمع . . احملني . . أسرع .

فحملت عظامه الخفيفة الصغيرة في حقيبتها المصنوعة من بشرة نحيلة قاتمة . فأخرج رأسه بشغف من النافذة المفتوحة ، وظل هكذا ، بينما كانت رجلاه الكسيحتان تتمايلان مرتطمتان بالحائط رغماً منه . وكان يغرد . . ينبح . أصغى « لنكا » إلى كل هذه الموسيقى وهو يصفر صفيراً رقيقاً مصاحباً لها .

واستقر الغبار في القبو ، فأصبح المكان أخف وطأة . وكانت هناك ساعة رخيصة معلقة على سرير أمه . وعلى الموقد أطباق قذرة ، وثمة طبقة كثيفة من الغبار تجلل كل شيء ، وخاصة في الأركان ، حيث أعشاش العناكب تتعلق بخيوط قذرة ، ويشبه بيت لنكا حفرة للقمامة ، يحدق قبح الفقر من كل ركن فيه ، مؤلماً المشاعر . وأخذت النار تشتعل تحت الساموفر داكنة ، وزمجر صوت أجش يقول :

– أسكت .

فتوقف فجأة العصفور عن الغناء ، وقال لنكا وهو يتنهد :

– أرجعني إلى الصندوق ، فقد أسكتوها . .

فأجلسته في صندوقه ، وسعل بحرص ، عابساً وداعكاً صدره بيديه .

– إن صدري يؤلمني ، فاستنشاق الهواء ليس مفيداً لي . اسمع ألم تر عفاريت أبداً ؟

– كلا .

– ولا أنا أيضاً . ففي الليل أواظب النظر تحت الموقد – لعل واحداً يخرج . . ولكنهم لا يظهرون . . هناك عفاريت في المقابر ، أليس كذلك ؟؟

– وما حاجتك إليهم ؟

– إنه لأمر مثير ، فماذا يحدث لو انقلب أحدهم رحيماً عطوفاً ؟؟ لقد رأت كاتكا ، ابنة السقاء ، عفريتاً صغيراً في قبو . . فلم تفعل شيئاً سوى أن ارتعبت . . أما أنا فلا أخشى الأشياء المرعبة .

ثم أخذ يدثر قدميه بالخرق وهو يتحدث بسلاطة :

– بل أنا أحب الأحلام المزعجة ، أحبها حقيقة . فذات مرة شاهدت شجرة تنمو مقلوبة بالحلم ، حيث أوراقها إلى الأرض وجذورها في السماء ، فغرقت في عرقي ، واستيقظت فزعاً . وفي مرة أخرى رأيت مامي ترقد عارية هناك ، وكلب ينبح عند بطنها ، ثم تناول لقمة وبصقها ، ثم لقمة أخرى وبصقها . . وفي حلم ثالث اهتز منزلنا نفسه وأخذ يتحرك عبر الشارع يخبط أبوابه ونوافذه ، ومن خلفه جرت قطة زوجة المفتش . .

ثم هز كتفيه الصغيرتين كما لو كان هانئاً، وتناول الفاكهة المسكرة ، وفض الورق الملون المحيط بها ، وبسطه بعناية ، ووضعه على حافة النافذة . وقال :

– سأصنع شيئاً من هذه اللفائف ، شيئاً جميلاً . أو أعطيها لكاتكا ، فهي تحب أيضاً الأشياء الجميلة ، كقطع الزجاج، والأواني الفخارية ، والأوراق ، وما شابه ذلك . ولكن اسمع : لو واظبت على إطعام صرصار ، فهل يكبر حتى يصبح في حجم الحصان ؟؟

وكان واضحاً أنه موقن بإمكان ذلك . لذا قلت :

– لو أطعمته جيداً ، فمن الممكن أن يصبح . .

فصاح جذلاً :

– بالطبع ، ولكن مامي العبيطة تضحك مني . .

ثم أردف كلمة داعرة لاعناً بها المرأة .

– إنها غبية . إذن ، فالقطة إذا أمكنك إطعامها لصارت في مدة وجيزة في حجم الحصان . أليس كذلك ؟؟

– لماذا ؟؟ أجل ، إن ذلك ممكن . .

– إنه لأمر محزن ، فليس لدي الطعام الكافي ، وإلا لكبر حجمها .

ثم ارتعش مضطرباً بسحر ، ضاغطاً صدره بيده ، وقال :

– ستكون هناك فراشات بحجم الكلاب وصراصير تصلح لجر عربات الحجارة، إذ ما دامت في حجم الحصان فيجب أن تكون قوية . . اه ؟؟

– ولكن ألا ترى أن لها شوارب .

– وفيما تضر الشوارب ، إنها ستكون بمثابة اللجام ، ويصبح العنكبوت هائلا .. مثل ماذا ؟؟

ثم استطرد قائلاً :

– عنكبوت في حجم الكتكوت ، وحتى هذا سيكون مرعباً . . لو كانت لي قدمان لعملت بجد ، وأطعمت حيوانات متحفي كلها ، واشتريت لأمي منزلا في الحقول الخضراء . . ألم تزر الحقول الخضراء أبداً ؟

– لقد زرتها بالفعل .

– حدثني عنها . . هل ستحدثني ؟

فأخذت أحدثه عن السحب والحقول فأصغى بشغف دون أن يقاطعني ، وغطت أهدابه عينيه ، وأخذ فمه ينفرج كأنه يبدأ في النوم ، فشرعت أخفض صوتي . . ولكن أمه أقبلت والساموفر يغلي في يدها وكيس من الورق تحت ذراعها ، بينما التصقت زجاجة من الفودكا بصدرها .

– لقد حضرت .

فتنهد الصبي ، وهو يفتح عينيه على اتساعهما ، قائلاً :

– مامي لماذا لا تستأجرين عربة وتذهبين بي إلى الحقول الخضراء حيث الحشائش والزهور ؟؟ سأموت هنا بهذه الطريقة دون أن أراها . صدقيني يا مامي ولكنك « زفت » .

وختم كلامه بنبرة حزينة مستاءة .

فوبخته أمه بحنان :

– لا تشتم ، لا يجب عليك ، فأنت مازلت صغيراً .

– لا تشتم . كل شيء حسن بالنسبة لك : فأنت كالكلبة تذهبين حيثما تريدين . إنك محظوظة ، انك محظوظة .

– اسمع .

وتحول إلي قائلاً :

– هل الله هو الذي صنع الحقول الخضراء ؟؟

– بلا شك .

– حسناً ، ولأي سبب ؟

– ليذهب إليها الناس في نزهة .

– الحقول الخضراء . .

قالها الصبي وهو يبتسم ويتنهد . ثم أردف :

– سآخذ معرضي إلى هناك ، وأطلقها كلها قائلاً : إلى حيث يحلو لكم يا إخواني . اسمع : أين صنعوا الله ؟

فصرخت أمه وانقلبت على نفسها من الضحك ، ثم سقطت على الفراش وهي تصيح وتضرب على قدميها ببعضهما قائلة :

– يا إلهي . ماذا . . . يا حبيبي . لماذا ؟؟ إنهم صانعوا الايقونات المشطورة من جانبها . .

فنظر إليها لنكا مبتسماً ، وسبها بحنان وبلغة بذيئة :

– إنها تتصرف كالطفلة ، ألا ترى أنها تحب الضحك . .

وأعاد الكلمة القذرة ، فقلت :

– لا تحفل ، ودعها تضحك .

فقال موافقاً :

– أبداً ، لا أحفل بذلك ، إني لا أغضب منها إلا عندما لا تنظف النافذة فتحرمني من رؤية نور الله ، ولكنها ممعنة في تجاهلها .

وأخذت المرأة تنظف أدوات الشاي وهي تكتم ضحكها ، ثم غمزتني بعينها الزرقاوتين الخفيفتين قائلة :

– أليس لدي ابناً لطيفاً ؟؟ لولاه لك ، ولخنقت نفسي .

لانتحرت غزقا من وقت طويل اقم

فقال لنكاً مبتسماً :

– هل أنت معتوه ؟؟

– لست أدري . ولكن لماذا ؟؟

– مامي تقول إنك معتوه .

فصاحت المرأة بشجاعة :

– ولم أقول ذلك ؟ تحضر امرأة ثملة من الشارع ، وتضعها في فراشها ، وتنصرف ، ثم لا شيء أكثر من ذلك . لم أقصد الاساءة إليك ، وما عليك سوى أن تخبرني . أوه أنت هزيل . .

كانت تتحدث كالأطفال ، بطريقة تشبه صبية لم تعد المراهقة الأولى بعد ، حيث تقبع في عينيها طهارة العذراء ، الصغيرة ، فبدا وجهها أشد بشاعة بأنفه المبتورة ، وشفتها المدلاة وأسنانها العارية ، وكان يلوح عليه سخرية مقبضة ، ولكنها مرحة .

ثم دعتنا بوقار قائلة :

ــ حسناً ، هيا بنا نتناول الشاي.
ووضعت الساموفر على صندوق بجوار لنكا ، وتصاعد لسان من البخار تحت الغطاء القذر لامساً كتفه ، فمد يده الصغيرة فوقه فلما ابتلت مسح بها شعره ، وضيق عينيه وكأنه يحلم . وقال :
ــ عندما أكبر ــ ستأتني أمي بعربة أزحف بها في الشوارع مستجدياً ، فإذا ما تجمع لي قدر كاف ذهبت إلى الحقول الخضراء .
فتنهدت أمه وضحكت بلطف قائلة:
ــ انه يعتقد أن المدينة جنة . ولكنك لا تجد فيها إلا المعسكرات والجنود المتوحشين والفلاحين السكارى . فأسكتها لنكا عابساً :
ــ أنت تكذبين . اسأليه عن المدينة فقد رآها .
ــ وأنا ، ألم أرها أنا ؟؟
ــ نعم وأنت ثملة .
فأخذت تجادل كالأطفال ثائرة دون ترابط أو منطق ، بينما كان المساء الحار يغزو الفناء ، وتعلقت في السماء سحابة لا تريم كثيفة برتقالية ، وبدأ الظلام يرخي سدوله على القبو .
واحتسى الصبي قدح الشاي ، وبدأ يعرق ، فتطلّع إليّ ثم إلى أمه ، وقال :
ــ لقد أكلت وشربت ، والآن أكاد أنام ، بحق الإله .
فنصحته أمه قائلة :
ــ يجدر بك النوم .
ــ وهو ــ هل سيذهب ؟؟ أستذهب ؟
فأجابته أمه وهي تلكزني بركبتها :
ــ لا تشغل فكرك ، فلن أدعه يذهب .
فقال لنكا مسترحماً وهو يغلق عينيه، ويريح جنبه ، ويغرق في صندوقه :
ــ لا تذهب . لا تذهب .
ثم رفع رأسه فجأة وسأل أمه موبخاً :
ــ لماذا لا تتزوجيه فتتخلصين من كل عذاب ؟؟ إنهم لا يحسنون إلا ضربك . أما هو فرجل طيب .
فقالت المرأة بهدوء وهي منحنية على قدح شايها :
ــ صه ، نم .
ــ كما انه ثري .
وجلست المرأة صامتة بعض الوقت ، ترشف شايها من القدح بشفتين كئيبتين . ثم التفتت إليّ قائلة كأني صديق حميم :
ــ إليك طريقة حياتنا . هو وأنا ولا أحد غيرنا . إنهم يلعنوني في الفناء ، ويدعونني امرأة فاسدة . حسناً ، فلست خجلة من أحد ، كما أنك رأيت كم هي معقدة حياتي . كل إنسان يرى ما أصلح له . . نعم ، ضناي نائم ، يا حبيبي ، أليس عندي طفل حسن ، اه ؟
ــ نعم ، جداً . .
ــ ولكن ظروف حياتي لا تمكنني من النظر إليه قدر ما أريد . وأي عقل له .
ــ إنه صبي ذكي .
ــ ذلك حق ، كان والده رجلاً عجوزاً ، من أولئك . . ماذا يدعونهم ؟؟ لهم مكاتب ، يا إلهي ، إني لا أذكر . .

كانوا مشغولين بالأوراق ..
– أتعنين موثق عقود ؟؟
– أجل بالضبط ، كان رجلاً مسناً غنياً ، شديد العطف . كنت أعمل خادمة في منزله ، فأحبني .
وغطت ساقي طفلها العاريتين بالخرق ، ومدت الوسادة تحت رأسه ، واستطردت :
– ثم توفي فجأة . كان ذلك ليلاً . ما كنت أغادره حتى سقط إلى الأرض ، وكانت تلك نهايته ... أتبيع الكفس ؟؟
– نعم .
– لحسابك ؟
– كلا ، لحساب رجل آخر .
ثم اقتربت مني قائلة :
– لا تتكبر علي يا رجل ، فلا يمكنك أن تمسكه عني طويلاً . اسأل أي شخص في الطريق فكلهم يعرفونني ..
– ولكني لا أتكبر عليك .
فوضعت يدها الصغيرة على ركبتي ، فرأيت جلد أصابعها الذي فراه العمل ، وأظافرها المكسورة . ثم قالت بإخلاص :
– إني مدينة لك من أجل لنكا . لقد حصل على اجازة وكان هذا جميلاً منك ..
فقلت :
– يجب أن أرحل .
فسألتني مندهشة :
– إلى أين ؟
قلت :
– علي أن أنجز شيئاً .
– امكث .
– لا أستطيع .
ونقلت بصرها بين ابنها والنافذةوالسماء.
وقالت برقة :
– امكث وسأغطي وجهي بمنديل ، إني سأفعل هذا لأشكرك على ما أسديته لابني ، اه ، وسأغطيه .. خاطبتني بإغراء، وإنسانية ، وإخلاصٍ شديد . وأبرقت عيناها – كعيني طفلة في وجه بشع – لا بابتسامة المتسولة ، بل بابتسامة من يملك ثروة ويمكنه رد الجميل بطريقة مجزية ..
ثم فجأة صاح الصبي ، محملقاً ، ورافعاً نفسه عن الصندوق :
– موم ، إنهم يزحفون ، موم تعالي ..
فقالت وهي تحنو عليه وتدثره :
– إنه يحلم .

وخرجت إلى الفناء حيث وقفت أفكر ، وتسرّب إلي عبر النافذة المفتوحة صوت أجشّ يغني بمرح .. كانت الأم تغني لابنها ترنيمة المهد ، ناطقة الكلام بوضوح :

ستأتي أيام تعسة ، حاملة معها
كل أمر حزين
وآلاماً تميت العقول
وتنثر القلب أشلاء
آلام وهم وحزن
فأين عندئذ تختبيء ؟؟ آه .. أين

فغادرت الفناء مسرعاً ، وأنا أصر على أسناني كي لا أجأر بالصراخ ...

مسرح تنيس وليامز



إن الحياة إذا ما اكتملت يجب أن تنتهي . . تماماً مثل قصيدة الغزل إذا ما كتبنا الجزء الأخير فيها . يجب ألا نستمر في الكتابة لأننا في هذه الحالة نشوه ما كتبناه . . !

تنيس وليامز

يعتبر « تنيس وليامز » من أشهر كتاب المسرح الأمريكي المعاصر ، إن لم يكن أشهرهم على الإطلاق . كتب مجموعة من المسرحيات الهامة التي ضمنت له مكاناً بارزاً بين مؤلفي الدراما العالميين . وهو ككل كاتب كبير له عالمه الفني المتميز الذي ينبع عن فهم معين لطبيعة الشقاء الانساني فهو يتعمق الأغوار السحيقة لنفسيات أشخاصه ويحللها تحليلاً دقيقاً مؤمناً – كما آمن « فرويد » من قبله – أن الجنس هو المحور الرئيسي الذي تدور من حوله مشاكل البشر النفسية . ولكن الجنس في كتاباته ليس غاية مستهدفة وإنما مظهراً عميقاً للقدرة على التواصل بين الرجال والنساء الحالمين الذين تضنيهم مشاعرهم المرهفة المعذبة . إنه حاجة نفسية قبل أن يكون حاجة بيولوجية . لذلك كثيراً ما نلتقي عنده بهؤلاء الأشخاص الذين يدفعون بالجنس عن أنفسهم شعورهم بالوحدة والضياع والألم .

...سرحيات

بقلم ابراهيم أصلان

وهو فوق ذلك كله يعد كاتباً متفوقاً في « الفن المسرحي » ، بمعنى أنه آثر التخلص من بعض التقاليد المسرحية القديمة محاولاً بذلك أن يرسي دعائم أساس جديد للدراما . وقد أوضح ذلك في مقدمة مسرحيته : (حيوانات من زجاج – ١٩٤٤) حيث يقول : « حينما تستخدم المسرحية الوسائل الفنية غير التقليدية فليس ذلك محاولة للتهرب من مسئولية مواجهة الواقع أو تصوير التجربة بل إنه محاولة الوصول إلى تناول الموضوع بطريقة أكثر اقتراباً من الحقيقة والتعبير عن الأشياء بعمق وحيوية يلبسانها ثوب الواقع » .

والحق أنه يفعل ذلك بإحساس الشاعر والفنان أولا ، لذلك نحيا في أعماله ذلك الجو الغامض الذي يزيدنا حنيناً إلى تلك الأشياء المجهولة التي نفتقدها ، تلك الآمال التي لا نعرف عنها شيئاً والتي نتوجه إليها ، دون أن تتحقق أبداً .

و « تنيس وليامز » لا يقدم لنا في مسرحياته أحداثاً تحكى ، وإنما جواً نفسياً خالصاً ، عناصره الكلمات والأنغام والألوان ، مستفيداً بكل ما توفر في المسرح الحديث من مؤثرات بصرية وسمعية أيضاً . ومن المعروف أنه ، شأنه في ذلك شأن كل كتاب المسرح الأمريكي قد تفتحت مواهبه في المسرحية القصيرة ذات الفصل الواحد والواقع أن الأعمال الأولى تلك أهميـــة خاصة ، ليس فقط لأننا نلتقي فيها بالفنان المبدع يوسع من خطاه متحسساً الوجود من حوله مستعرضاً قطاعات مختلفة من بيئته الاجتماعية ، ولكن أيضاً لأننا كثيراً ما نعثر فيها على الأصول الفنية والفكرية التي عالجها بعد ذلك بإفاضة – وقد اكتملت – في مسرحياته الطويلة المتتالية .

و « الوداع الطويل » الذي صدر مؤخراً عن دار الكاتب العربي ، كتاب جديد يضم أربعاً من هذه المسرحيات ، قام بترجمتها « عبد المنعم صبحي » و « سميحة حسنين » .

في المسرحية الأولى ، وهي بعنوان « رسالة غرام من اللورد بيرون Lord Byron's Love Letters » نجد أنفسنا في حجرة جلوس في مسكن قديم بمدينة

« نيو أورليانز » في نهاية القرن الماضي . تعيش فيه امرأتان . العانس وهي في الأربعين من عمرها . والمرأة العجوز ذات الرداء الحريري الأسود . ونحن نعرف أن لدى هاتين المرأتين خطاباً غرامياً كتبه اللورد بيرون . وأنهما قد علقتا إعلاناً بذلك على باب المسكن . وعندما يدق جرس الباب تتوارى العجوز خلف الستائر بينما تفتح العانس الباب . إن القادمة هي « الزوجة » التي وفدت إلى المدينة مع زوجها الذي تركته يتسكع في الشوارع . لمشاهدة احتفالات عيد الشكر التي ستمر أمام باب هذا المنزل . وبمجرد دخول الزوجة يلفت نظرها ذلك العصفور الواقف في قفص من العاج : « أوه . . هذا العصفور المسكين في مثل هذا الصندوق الصغير . . إنه صغير جداً على العصفور » .

العانس : إن العصفور ليس حياً .

العجوز : (من خلف الستائر) : لا .. إنه محنط .

الزوجة : أوه (وبحركة غير شعورية تلمس العصفور المحنط الذي تزين به قبعتها (.

وهكذا يضعنا الكاتب منذ البداية أمام طائرين فاقدين للحياة ولكل قدرة على تبادل الغناء والشجن : عالمين غير قابلين للقاء . وتقول الزوجة : أحقيقة عندكم خطاب من الخطابات الغرامية للورد بيرون ؟

العانس : أجل .

الزوجة : يا له من أمر مثير . وكيف حصلتم عليه ؟

العانس : إن الخطاب قد كتب لجدتي .

وتشارك العجوز في الحديث من خلف الستائر . تشارك فيه بانفعال خاص يلقي بظلال من الشك حول علاقتها بالجدة التي كتب اللورد بيرون خطابه الغرامي من أجلها . وهي تحكي للزوجة كيف قاتل اللورد من أجل الحرية . وتقابل الزوجة ذلك التعبير عن سعادتها : « أوه . . كم هو مثير جداً . . حقيقة بودي لو أسمع هذا مع زوجي » . وتنادي زوجها الذي يدخل إلى الحجرة وهو سكران . ولا تلبث العانس أن تلتقط من المكتبة مجلداً قديماً لتقرأ عليهم تفاصيل ذلك اللقاء الذي تم بين الجدة واللورد . وفي هذه الأثناء يكون الزوج قد استغرق في النوم . وما إن تنتهي العانس من القراءة حتى تحضر الخطاب وتريه للزوجة من مسافة لا تمكنها إلا من رؤية الكتابة فقط حتى لا تستطيع قراءة ما فيه من خصوصيات . ولا يلبث صوت العجوز أن يرتفع من وراء الستائر في انفعال عاطفي حاد . وهي تردد على مسامعهم قصيدة الغزل التي كتبتها الجدة في ذكرى اللورد :

أتظن أن كلمات الحب قد كتبت على قلبي بالطباشير . .

حتى تمحى بقليل من حبات دموع الفراق ؟

إذن فأنت لا تدري بأي خطى بطيئة أسير أنا .

في ذلك الطريق المقفر طوال سنوات الفراق . إن حياتي مقدمة ضائعة . . قشرة بيضة بنتها قبلتك الأولى . . وهدمتها لحظة الوداع .

وفي ذروة تلك اللحظة العاطفية التي تعيشها العجوز يعلو صوت الموسيقى المصاحبة للاستعراض من الخارج . وتصيح الزوجة « ما هذا ؟ الاستعراض ؟ » ، وتندفع هي وزوجها إلى مشاهدته . فهي من أجل هذا وليس من أجل الاستماع إلى هذه الأشياء إنما جاءت . وتتبعها العانس وهي تردد : « نحن في العادة نقبل مبلغاً صغيراً لعرض الخطاب . . أي مبلغ في إمكانك أن تدفعيه . . إن هذا في الحقيقة هو كل ما نعيش عليه ». « نعم . . أي مبلغ حتى ولو كان ربع دولار فقط » . . ولكن الزوج والزوجة يكونا قد اختفيا .

وأخيراً يتبدد الشك في طبيعة هذه العلاقة التي تجمع بين العجوز وتلك الجدة العاشقة. وذلك عندما توجه كلماتها الأخيرة مخاطبة العانس : « خطابي . . لقد أسقطت خطابي ، خطاب جدك ملقى على الأرض » .

وهكذا يسدل الستار الأخير على ذلك المسكن الذي تعيش بداخله المرأتين ، تماماً يعيش الطائر المحنط داخل قفصه العاجي الصغير . يسدل على ذلك الأسى الذي يصوغ عالماً يعتمد على لحظة **مجد** غابرة لا تهم الآخرين . لا . . ولا تصلح لشيء حتى على مستوى الاستجداء . لحظة مجد قديمة لم يبق منها إلا وهم الذكريات .

فإذا ما انتقلنا إلى المسرحية الثانية « ٢٧ عربة قطن 27 Wagon Full of Cotton » سنجد أنفسنا في مسكن تاجر الأقطان (جاك فيجان) وزوجته الفخمة التي تشبه اللعبة . هذا الزوج يغافل زوجته ويتوجه إلى مزرعة النقابة القريبة منهما ويقوم بإحراقها . وعند عودته يرغمها على الاعتقاد — عن طريق إيلامها بالضغط على عنقها ورسغها — بأنه لم يغادر المسكن بل كان جالساً بجوارها طيلة الوقت . أما المشهد الثاني فهو يقع بعد ظهيرة اليوم التالي حيث يظهر (جاك) مع (فيكارو) المشرف على مزرعة النقابة التي أحرقت في الليلة السابقة . والذي اضطر بعد حرق قطنه أن يطلب من (جاك) تجهيز ٢٧ عربة مليئة بالقطن حتى يفي بتعهداته للعملاء . ويغادر (جاك) المزرعة من أجل تجهيز الكمية تاركاً (فيكارو) مع الزوجة (فلورا) . ولا يلبث أن يتطرق بهذين إلى حريق الأمس . وتخبره هي دون أن تدري بأن زوجها كان متغيباً عن البيت وقت أن وقع الحريق . ويبدأ هو في استدراجها بعد أن يجلس إلى جوارها على الأرجوحة ويبدأ في مداعبتها بالملامسة والكلمات . وهي تحاول أن تتركه وتدخل إلى المسكن بعد أن فقدت ما تبقى لها من من إرادتها الطفلة ، ولكنه يدخل وراءها دون أن تمتلك من القدرة على منعه سوى رجائها له بأن يترك السوط الذي يحمله خارج المسكن ولكنه لا يذعن . وما إن يغلق الباب وراءهما حتى ترتفع صرخاتها المسترحمة ، لنفاجأ بمنظرها في المشهد الأخير

عندما تخرج وحدها من وراء الباب مشعثة المنظر ، عيناها تشع صفاء تحت أشعة القمر والجزء العلوي من جسدها عارياً تماماً إلا من حزام أحمر قان ممزق ملتف حول صدرها ، ومن إحدى عروتي فمها تساقطت نقطة دم تجمدت في موضعها أسفل الفم .

ويعود زوجها منتشياً بإنجازه للعمل وهو لا يلاحظ حال الزوجة التي انزوت في مكان مظلم بالفناء . وبعد أن يتبادلا حديثاً راضياً يتركها ويذهب إلى دورة المياه بينما تهدهد هي حافظة نقودها الجلدية بحنان، وتحملق إلى القمر ، وكأنها تنظر إلى العدم .

هذه إذن مسرحية تثير كثيراً من المشكلات التي لا يمكن تجنبها . فنحن بطبيعة الحال لا نستطيع أن نحول عملاً فنياً إلى معادلة فكرية كما اعتاد أن يفعل كثير من النقاد ، فهذا مزلق خطر . فالدافع إلى الابداع ليس دافعاً فكرياً ، بل هو — على حد تعبير الكاتب الانجليزي (شارلس مورجان) ، صورة من صور الوجد . بل إننا نذهب إلى حد القول بأن العمل الذي يقبل مثل هذه الترجمة قد يكون أي شيء آخر إلا أن يكون عملاً فنياً . وليست هذه تأكيدات جديدة لدعوة قديمة، ولكنها إيمان بأن التجربة الفنية أكثر ثراء وخطرا من أن توجز في عدد من المقولات مهما كانت أهميتها . ولكننا أيضاً لا نستطيع أن نغفل ما قد يكون في العمل الفني من إيحاءات دالة . أو ما قد نستطيع أن نطلق عليه « تكريس التجربة » ، أعني تلك الامكانية الواعية التي ترافق لحظة الابداع فتوجه من مسارها . فلنحاول إذن أن نشير إلى ما في هذه المسرحية من إيحاءات نعتقد في قصديتها . وهذا مزلق خطر كما قلت ، ولعل ما يغفر لي في هذه الحالة أنني لست بناقد ، ولكني أحاول فقط أن أقدم إلى القارىء مجرد قراءة متذوقة .

أمامنا رجلان : (فيكارو) صاحب الجسم النحيل والنظرات والملامح العميقة، وهو رجل نقابي ، وبالتالي فهو النموذج معين لفئة ترعى مصالح طبقة معينة من الناس . والثاني هو تاجر الأقطان العملاق (جاك فيجان) ، الذي يعد بدوره أنموذجاً آخر لطبقة أخرى من الناس .

أما زمن المسرحية أو البيئة التي جرت فيها أحداثها فيصفها (فيكارو) مخاطباً(فلورا) بقوله : « فأنت تعلمين أن كل شيء غير مستقر . المحالج تحترق ، وإدارة المطافىء لا تملك المعدات اللازمة لحماية الناس . إن شمس بعد الظهيرة غير محتملة ولا شيء يحمينا » (ص ٥٦) .

وهناك فيما بين هذين الانموذجين (جاك وفيكارو) يتم اتفاق ما . يقول (جاك) : طفلتي .. عليك أن ترفهي عن مستر فيكارو حتى أنتهي أنا من حلج السبعة والعشرين عربة المليئة بالقطن . سياسة حسن الجوار يا مستر فيكارو . أنت تؤدي لي معروفاً وأنا أرده إليك » (ص ٥٤) .

ونحن نلاحظ أن هذا التعبير « سياسة

حسن الجوار » . قد ورد في أكثر من مكان من المسرحية .

وتقول (فلورا) في المشهد الأخير :

« كان يقول لي (تقصد فيكارو) إنه لا ينوي تجديد بناء محلجه ، بل سيعهد إليك بقطنه لتحلجه بدلاً منه . . دائماً » .

جاك : لقد قلت لك أنه يتصرف باتزان .

فلورا : آه . . وهو ينوي أن يعود غداً بكميات أخرى من القطن ربما سبعة وعشرون عربة أخرى . وبينما تحلج أنت القطن سيجعلني أمتعه بعصير الليمون اللذيذ . (ص ٧٣) .

لقد تم الاتفـــاق بين (جاك وفيكارو) إذن . ولكن بعد أن تركت هذه المهادنة آثاراً لا تمحى على المرأة اللعبة ، ضحية ذلك التواطؤ . فلقد رأيناها عندما خرجت في بداية المشهد الأخير مأخوذة وعارية إلا من حزام أحمر (!) يلف حول صدرها ، مشعثة المنظر ، ملطخة بالدماء . ترى من تكون هذه المرأة ؟

يقول فيكارو في (ص ٦٤) عندما كان يداعبها :

« إنك امرأة رقيقة ، وأيضاً ضخمة ولطيفة » .

وترد هي عليه :

« وكذلك أمريكا كبيرة » .

والآن ، فلننتقل إلى المسرحية الثالثة . الحب ، ليس فقط من حيث كونه وسيلة لتحقق الذات بين عاشقين ، وإنما من حيث هو دلالة أعمق لقدرة الكائن على التلاؤم مع الوجود من حوله . . الحب على هذا المستوى من الادراك هو المنبع الذي تتفرع منه روافد وليامز المسرحية . لذلك كثيراً ما نلتقي عنده بهؤلاء الفاقدين لذلك النوع من الحب لأنهم غير قادرين على تحقيق تكاملهم الاجتماعي والنفسي .

والمسز (كولنز) في المسرحية الثالثة المسماء « صورة العذراء »

The Portrait of A Madonna) واحدة من الفاقدات لهذا التكامل والذي يصل بها الأمر إلى حد الاختلال الكامل . وهي وهي أيضاً واحدة من شخصيات وليامز الأثيرة .

إنها عانس متوسطة العمر ، قبيحة المنظر ، نراها وقد عقصت شعرها كفتاة صغيرة ، مرتدية ثوباً شفافاً مزركشاً يبدو أنه أخرج من صندوق الأماني الذي تجمع فيه العذراء ما تعده من ملابس انتظاراً لزواجها . والمسز (كولنز) هذه تعمل منذ ثلاثين عاماً مساعدة مشرف في إحدى مدارس الأحد . وفي بداية المسرحية نراها وهي تخاطب المستر « ابرامز » المشرف على هذه المدرسة خلال التليفون في عصبية عنيفة ، وتخبره أن رجلاً قد اعتاد زيارتها والنيل منها ، وهو موجود الآن في حجرة نومها . وما إن تنتهي حتى تختفي داخل حجرة النوم ليظهر البواب وعامل المصعد ، ويدور بين الاثنين حديث طويل نعرف منه أن المسز « كولنز » امرأة طيبة ولكنها

مخبولة وان المستر (ابرامز) طلب منهما مراقبتها . وتخرج المسز (كولنز) وتبادلهما الحديث ، وتقص عليهم حكاية علاقة قديمة .

عامل المصعد : (يذهب إلى الرف) : هذه الصورة يا مسز كولنز ؟

مسز كولنز : نعم ، لقد أخذت لي في رحلة مع مدرسة الأحد . . لقد عهد إلي في ذلك اليوم بتلاميذ الحضانة وأخذ هو الأولاد الكبار . . وركبنا عربة سكة حديدية من « ويب » إلى « كرستال سبرنج » (ثم تغطي أذنيها بضفائرها بطريقة صبيانية رشيقة (آه . . لو سمعتم صفير القطار . . بو . . بو . . بو . . (ثم وهي تضحك) لقد أخافني كثيراً هذا الصوت ، ووضع هو يديه على كتفي . . ولكنها كانت هناك أيضاً مع أنها كانت في إجازة حينئذ ثم اختطفت قبعته ووضعتها على رأسها ثم اندفعا يمرحان » (ص ٨٤) .

وهي تقول في موضع آخر : « ترك ذلك البيت وتلك المرأة وجاء هنا . . لقد رأيته خلف الكنيسة في يوم من الأيام ولم أكن واثقة أنه هو . . ولكن تلك هي الحقيقة . . وفي الليل اقتحم علي مسكني لأول مرة . . لم يكن يعرف أنني قد تغيرت ، وأنني لم أعد أشعر بنفس المشاعر التي تعودتها . . إن له الآن ستة أولاد من تلك الولود » (ص ٩٥) . وهي تتوهم أنها قد أصبحت حاملاً بدورها .

إن الفنان . . والعاشق ، والثائر . صنوف حالمة من البشر . وكذلك المخبولين . فاذا كان الحلم بالنسبة إلى المجموعة الأولى هو الصياغة الوجدانية أو الفكرية لعالم أفضل يعمل كل منهم على إحلاله محل العالم الموضوعي بوعي عميق لما بين العالمين من تناقض ، فإن الأمر بالنسبة للمجموعة الثانية هو مرحلة أخرى مختلفة تماماً . يذوب فيها ذلك الوعي العميق بالحد الفاصل بين العالمين ويتلاشى .

لم يعد إذن أمام المسز (كولنز) إلا الزقاق القائم ، الذي لا يوصل إلا إلى مكان البعيد . لذلك يحضر المستر (ابرامز) ومعه الطبيب والممرضة ، ويأخذونها إلى حيث يمكنها أن تواصل أحلامها الموهومة التي لا ترضينا نحن العقلاء ، والذي يضيق بها عالمنا المتسع .

أما (جو) فهو أديب شاب في مقتبل العمر ، وصديقه (سيلفا) هو شاب آخر في مثل سنه . إنهما يجلسان بالشقة في انتظار مندوب إحدى شركات التخزين حيث قرر (جو) أن يتخلى عن أثاث الشقة . ويفتح الباب ويدخل أربعة حمالين يبدأون في حمل قطع الأثاث . وبينما هم يعبرون الغرفة حاملين أجزاء السرير يقول (جو) :

« هذا السرير الذي رأيت عليه النور لأول مرة » .

سيلفا : أنظر إلى الطريقة التي يحملونه بها ، كأنه مجرد سرير عادي .

جو : وفوق هذا السرير خرجت (ميرا) إلى الحياة هي الأخرى . . وماتت أمي .

وندرك من بقية الحوار أن الأم التي كانت مريضة بالسرطان قد ختمت حياتها بيديها من أجل أن يحصل ابنيها على بوليصة التأمين وأن (جو) وحده هو الذي يعرف هذا السر . أما (ميرا) فهي تعيش الآن بعيداً بالطريقة التي تهواها . إلى هنا ثم تبدأ المسرحية تأخذ طابعاً تذكرياً ، بمعنى أن (جو) يبدأ في تذكر أحداث ماضية هي ما تقدمه المسرحية بعد ذلك حيث تخفت الأضواء وتظهر (ميرا) مع (جو) لتختفي وتظهر الأم مكانها . وتلقي هذه الأحداث أضواء على علاقة (جو) بأخته وعلاقتها هي المنحرفة بالآخرين من ناحية ، وعلاقة الاثنين بأمهما من ناحية أخرى . وبين الحين والآخر يقطع عمل الذاكرة المرئي ذاك صوت الحمالين وهم يواصلون نقل قطع الأثاث . ويحاول سيلفا أن يخرجه من هذه الدوامة : « إنني أنظر إليك منذ فترة .. فأراك تحملق في الفضاء . . كأنك قد فقدت شيئاً من عقلك . . إنني أعرف ماذا تفعل .. إنك تجد لذة مرضية في مراقبة هذا الأثاث البالي وهم يحملونه إلى الخارج فكأنك أشبه بواحد ن المعتوهين الذين يحلو لهم أن يحملقوا مذهولين في المقابر ، بحثاً عن شخص ما يرقد تحت الثرى . . جو . . إن هذا المكان قد انتهى أمره بالنسبة إليك . . وليس في استطاعتك أن تفعل شيئاً لتمنع هذا من الحدوث . اكتب عنها يوماً ، وسمها كلمة رثاء للبيت الخاوي . . ولكن نصيحتي لك أن تخرج لتشرب ، وتنسى كل شيء . . العالم يمضي وعليك أن تمضي معه » . ويقول (جو) : « ولكنه لا يمضي سريعاً هكذا ، حتى انه لا يمكنك أن تقول له . . وداعاً » . ولكن سيلفا الذي كان يقف في الجانب الآخر من المعادلة الوجودية يقول : « وداعاً ! إن هذه الكلمة لا مكان لها في قاموس حياتي ! أما الكلمة التي يجب أن تقولها الآن فهي : مرحباً » .

ويرد عليه (جو) : « إنك تخدع نفسك . فأنت تقول وداعاً طوال عمرك ، وفي كل دقيقة تحياها . . لأن هذه هي سنة الحياة ، فهي مجرد وداع طويل . . وطويل (ويكاد يبكي) . فأنت تودع شيئاً في أعقاب أشياء أخرى ! . . حتى يأتي الشيء الأخير ، وحينئذ تقول الوداع لنفسك .

هذه هي مسرحية « الوداع الطويل » ، رابع مسرحياتنا . ويا لها من لحظة وداع مؤسية حقاً . قد تذكرنا بأصحاب «تشيخوف» الذين راحوا يودعون بستان كرزهم دون أن يملكوا شيئاً حيال ضياعه ، وضياع أحلى أيامهم .

دراسات في

الأدب العربي والتاريخ

تأليف: محمد عبد الغني حسن

تتجلى الملامح العريضة في هذا الكتاب ، أكثر ما تتجلى في هذه القضايا الجديدة التي عرض لها المؤلف من خلال دراساته الواسعة ، واطلاعاته الكثيرة الواعية .

ولقد تثير هذه القضايا التي تناولها الأستاذ محمد عبد الغني حسن التساؤلات أكثر مما تثير التسليم الذي عودنا إياه الباحث في جل تواليفه ، وجملة مصنفاته التي تلعب الآن الدور الخطير في تشكيل المكتبة العربية ، وتأخذ وضعها بين اللدات الفضليات في الوطن العربي الكبـــير .

أثارت هذه الدراسات الواعية جملة تساؤلات : كان أكثر الباحثين يقفون حيال بعضها موقف الريب أو التشكك أو الوقوف دون رأي ، اللهم إلا ما كان يجري داخل المنتديات ، أو داخل النفوس ، أو ما يكتنف العقل ، وهو يراجع ، أو يعتور التفكير حين يهم باليقين أو القطع أو الانتهاء إلى رأي في مثل هذه المشكلات التي صاحبت الأدب هذه الأعمار العديدة .

والتوفيق الذي صادف هذا الدارس في هذه الدراسات لا يقل بحال عن التوفيقات التي صاحبته في أكثر القضايا التي عالجها ، أو وقف لها بالتجلية والوضوح والبيان .

على أن المحامد تقصر عن الاتساع ، إذا قلنا إن بعض قضايا هذا الكتاب لم يتناول من قبل ، أو لم يعرض له بالدراسة ، أو لم يفتح بابه إلا بعد أن راده الأستاذ عبد الغني حسن في بعض مجلات العالم العربي ، أو صحفه المنطلقة ، فكانت دراسات ودراسات بنيت على الحاصل الذي هدي إليه الباحث ، أو النتيجة التي ختمت بها

الدراسة .

وما نعلم أن باحثاً من البحاث تعرض لمراثي الشعراء لبني هذه الأمة العربية ، وما خطر لدارس أن يجمع رسائل الآباء إلى الأبناء ، أو يعرض بالتحليل للإخوة الأدباء والمؤلفين ، أو عرف أن ابن خلدون كان شاعراً : غير ما صح للدراسة التحليلية المقارنة والحوار والحنين إلى الأوطان ، أو ما داعب النسيم والنخيل ، أو صور الفقر والغنى والحريق في الشعر .

غير أن المضي في السرد لا يغني عندي عن الوقوف أمام هذه القضايا الخطيرة التي أصبحت مدار بحث ، ونقطة تحول في الدراسات الأدبية الجادة ، وان كان العرض والاستكناه والمناقشة هي محك هذه القضايا التي جمعها هذا الكتاب بعد طول المعاناة والممارسة والبحث والتقصّي والتعب والجهد .

يعرض الأستاذ عبد الغني حسن للإخوة المؤلفين في الآداب ، ويسرد طائفة من هؤلاء الإخوة الذين اشتركوا في عمل واحد ، ويحلل الأثر الذي اشترك فيه الاخوان أو الأخوات ، ويدفع إلى الاستغراب كما يساق إلى الظن إذا اشترك شقيقان في بحث واحد أو قصيدة واحدة أو نظما ديوان شعر برمته ، حتى وقف مع المعري في عجبه من اشتراك الخالدين : أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد في ديوان شعر واحد .

ولعل الفصل الذي عقده الباحث حول رسائل الآباء إلى الأبناء ، يعد من الفصول المتعة التي ضمها الكتاب . فالغاية من هذا الفصل الدراسة ليس الجمع واطلاع القراء على هذه الحصيلة التي وعاها الكاتب ، وإن كان الدافع إليها تنشئة البنين تنشئة صالحة على أساس من الخلق والمعرفة .

والذي يلفت في هذا المساق ، ليس وحده هذه الثروة المخبوءة التي كشف عنها الباحث ، وإنما المناقشة والادلاء بالرأي . . فحين يعرض الأستاذ عبد الغني حسن لرسائل حافظ عوض ، ورسائل أحمد أمين ، يهمه الوصول إلى السر في كتابة هذه الرسائل ، والفرق بينها « فحافظ عوض كتب رسائله إلى ولده المغترب في سبيل العلم وخص بها ولده ، ولم يستحضره في ذهنه حين كان يكتب ، وإنما كان الابن حاضراً . . . والثاني كتب الرسائل إلى ولده على مرأى ومسمع من الناس ، ولعل الناس قرأوها في مجلة الهلال بمصر قبل أن يقرأها الابن في انجلترة ، ولعل الأب لم يخص ولده بهذه المنشورات رسالة رسالة ، وإنما اكتفى بأن يطلع الابن عليها منشورة في المجلة » .

ويعنى الباحث الفاضل بفارق آخر يمضي به في إثبات حجته في الفوائد الجليلة في هذه الرسائل . . ذلك . . « أن رسائل حافظ عوض قد نشرها ابنه في كتاب قدمه هو بنفسه ، ضناً بنصائح والده ، وأما رسائل أحمد أمين فقد جمعها هو بنفسه وقدمها ، مؤملاً أن ينتفع بها الجيل الحاضر كما انتفع بها ابنه » .

على أن الدلالة الصادقة على التقسيم الفرقى بين رسائل الرجلين . لا تخلو من همزات القطع التي وضعها الباحث على جل مسائل هذا الباب . . فيبدو الكاتب في هذه المناقشة ناعم الملمس . حلو السمات . وإن كنت أنا شخصياً أتلمس له كثيراً من الآراء المعصوية التي يتبينها المدقّق في مساق هذه الآراء .

ولا يعترضنّ معترض ، إن كان للباحث وسط هذا العجاج رأي يريد أن يفصح عنه . وإن كان من طرف خفيّ . . فالأستاذ عبد الغني يمشي الهوينا . وهو يسرد أو يناقش . ولكنه يقف ليحاسب . وإن كان في حسابه سليم النوايا . مأمون الجوانب . . ففروق الزمان بين رسائل حافظ عوض ورسائل أحمد أمين . وهي فروق قليلة لا تزيد على الثلاثين عاماً . تريه الفرق بين عهد وعهد وبين مهد ومهد . وإن كانت الفوارق هنا . لا تغني عن الدفاع . أو تقوم حجة على عصر وعصر . أو عهد وعهد . أو بيئة وبيئة . ولكنها فوارق . يفصل فيها التزمت بين عقل وعقل . وإن تلمّس لها الباحث الأعذار . وجمع لها من الأدلة العقلية . ما يعم به النفع . ويتمّ به القصد .

ويذهب الباحث إلى الأندلس حيث يجد علي بن سعيد وأباه موسى . ويثبت الحوار الذي دار بين الأب وابنه في أبيات له وفي قصائد لشعراء آخرين . ثم لا يغنيه ما دار من حوار شعري بينهما . فيسلك وإياه طريق النصح النثري الذي هو مجال هذه الرسائل . وميدان حكمائه . ومسرح التمثل والتمثيل فيه . .

ولم يفت الباحث . وهو يوفي دراسته أن يذهب إلى العصر الجاهلي ويوغل في صدر الاسلام . ويثبت نصيحة عمر بن الخطاب لابنه عبد الله . ونصيحة علي بن أبي طالب لابنه الحسن . ثم يدخل العصرين: الأموي والعباسي ويثبت أشهر رسائل النصح التي وردت فيهما ، ثم هذا النقد الناعم لأحمد أمين وهو يضع أمام ابنه قصة لقمان لابنه التي تعدّ نموذجاً وأثراً وإن أثارت في النفس أسئلة عجيبة كثيرة عن شخصية لقمان ولغة رسالته : أكانت العربية أم أختاً من أخواتها السامية ؟ وعن كيفية وصول هذه الرسائل إلى الأدب العربي ؟ ومن الذي وضع أول نص عربي لها في تراثنا ؟

ويتحدث المؤلف عن الأساليب الكتابية للرحلات العربية في القديم والحديث . ويتابع الاهتمام بالخلافات بين كل رحالة وآخر من حيث المنهج والأسلوب . والرؤية والتصديق والاتصال والمحاولة والدراسة والموازنة والاستعداد والقبول ، والارتياح والولوع ، ويصاحب جملة الرحالة في مذاقهم الخـــاص في تدوين رحلاتهم . ثم يختلف ان كان ثمة ما يستدعي الاختلاف في النظر إلى الرحلة ، أو الوصف المشاهد . أو الطعم الذي يؤثره هذا الرحالة على ذلك . . فمن ابن جبير إلى

ابن بطوطة إلى الشدياق إلى الريحاني إلى رفاعة الطهطاوي إلى فتح الله الصقال .

ولقد كان الأستاذ عبد الغني حسن محقاً في عقده فصلين عن : « أصول الألفاظ المعربة » . و « غايتنا من إحياء المخطوطات » . . . فلغات العالم كله عرضة للأخذ منها أو لأخذها هي من غيرها ، سواء أكانت غالبة أم مغلوبة . . وليس في هذا الاقتراض أو هذا الأخذ من بأس ما دام يسدّ حاجة عند المقترض . . كما يسد المال والمتاع حاجة عند الاقتراض . ثم تلك المناقشة الطريفة التي عمر بها هذا البحث عن المفردات المعربة في اللغة العربية إلى الألفاظ المعربة في القرآن الكريم . وآراء بعض العلماء .

غير أن الغاية التي انتهى إليها الباحث من إحياء المخطوطات ، هي الاختيار والربط والمدى الذي يربط الأمة العربية بثقافتها القديمة ربطاً يكون ذا صلة قوية بين هذا الحاضر ، وذلك الماضي بعد الغربلة وإزالة ما لم نكن في حاجة إليه .

والواقع أن حركة إحياء التراث على هذه الصورة لمما يبعث على الجور على مجهودات علماء أعلام . تركوا تراثهم إلى حركة البعث التي تنتظره في يوم من الأيام ، أو حركة الظهور في أزمان قد ترجع إليها إن هي راجعت ما فيها وعرفت شأن وسأو هؤلاء العلماء . ولكن إن نحن أهملنا هذا التراث وقصرناه على ما يربطنا بما فينا دون غيره من سائر الاتجاهات . كانت النتيجة بَتْرُ هذا المجهود والقضاء على هؤلاء الأعلام ، كالذي نفعله اليوم في عملية الاختصار والحذف لبعض هذه الكتب ، ونتناسى ذلك المجهود أو تلك المجهودات التي عكف عليها الذين أولعوا بإثبات الأسانيد والرواة . وان كان سيقف هذا الاثبات حائلاً . أو يكون سبباً في تعطيلنا عن المضي في ركب العلوم والثقافة العالمية المعاصرة .

والدقة والضبط في معاجمنا اللغوية أكثر ضرورية وأكثر لزومية . فالمعنى لا يبلغ كماله ولا يصل إلى السامع أو القارىء دقيقاً أو محكماً ، إلا إذا كان معتمداً على الدقة ، مرتكزاً على الأمانة ، وإلا كانت البلبلة والاختلاط وعدم الوضوح ، أو كان هذا الضد الذي يفسد هذا المعنى ، ويستحيل إلى غير ما أريدَ له . . . لذلك كان هذا الرأي الذي دعا فيه الأستاذ عبد الغني حسن إلى المراجعة والمعاودة بالضبط والتحقيق والغربلة والنخل لهذه المعاجم . حتى يكون هذا الربط بين هذا التراث الحاضر ، وكنوزنا في القديم .

ويمضي الحديث في هذه الدراسات إلى مؤلفات الغزالي وآثاره والاشتراك والافتراق بين الأخوين ورأي الفرنجة ، والمؤرخين العرب فيه ، وما قد أصاب مصنفات الفيلسوف من تغيير في عناوينها ، فبدت وكأنها كتب جديدة غير كتبه المتعالمة المتعارفة ، ونقده وانصافه ، حتى تعدى هذا الانتصاف رجلين في كتابين ، هما : « محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء

والبلغاء » للراغب الأصفهاني . و : « المستطرف في كل فن مستظرف » للأبشيهي .

ثم يقف المؤلف الفاضل وقفة كبيرة أمام هذا الباب من أبواب الشعر الذي لم يجمع في كتاب . ولم يتناول بالدرس والشرح والتحليل . اللهم إلا تلك السطور التي وردت متناثرة في بعض الكتب وتضاربت حولها الأقاويل حتى ليروع المطالع لأخبار الرثاء . انه لا يجد في كتاب الطبري على طوله وضخامته وتوسّعه في أخبار الرسول وولوعه برواية الشعر المناسب لأحداث التاريخ بيتاً واحداً من قصيدة رثى بها النبي عليه السلام ! !

وبحسْب الأستاذ عبد الغني حسن ، أن يكون له فضل هذا الباب . والالمام به والتوسعة فيه . فقد تابع المناقشة لابن الأثير في كتابه « الكامل » وابن هشام في «سيرته» وما قاله حسان بن ثابت في صاحب الدعوة الكريمة . وانفراده بين شعراء اراثي بعاطفة خاصة عن شعور شخصي وانفعالي ذاتي نبعت من لصوقه بالنبي الكريم ، فضلاً عن شعور الرثاء العام المعبر عن عظيم المصيبة وفداحة الخطب بالمرثي ، وإن كانت هذه المراثي لم تقف وحدها على حسان بن ثابت ، بل تشارك معه شعراء وشواعر في الرثاء العام للنبي عليه السلام .

وليس ينهض دليلاً على المعاناة . هذا الباب وحده . فقد لحق به عدة أبواب .. هي الحوار في القصيدة العربية على مختلف مراحله في جميع العصور . إلى جانب الحنين إلى الأوطان في الشعر العربي ، إلى تصوير الشعر الحديث للفقر والغنى . إلى الحياة في شعر العرب ، غير شعراء اللهيب والنسيم والنخل .

ولا إخالني بحاجة إلى الاعتراض على الحجيّة التي دفعت الأستاذ عبد الغني حسن إلى ضم هذه الموضوعات التي احتواها موكب التاريخ . فما أحسب الكتاب في حاجة بعدما حمل من هذه الدراسات الخطيرة . إلى الثورات في المجتمع الاسلامي والمعاهدات والمهادنات في الاسلام . وصور الحيلة والدهاء وعنصري الحيوية والاعلاء . وهذه اللقاءات مع الغزاة والفاتحين والمهن والمجتمع العربي والفكر العربي بين الاستظهار والتفكير والتجربة . وكتابة السير والتراجم . وملاحظات الجبرتي . وابن خلدون والشعوبية والتصوف والدعوات الملتوية والسلام ومناهضة الحروب .. أقول هذا وأعطي لنفسي الحق في الاعتراض والدفاع .. إلا أن يكون الباحث الجليل يريد إثراء المكتبة العربية بهذه الاطلاعات المرموقة في التاريخ بعرضه المعروف بالاستطراد والمناقشة ، ومساق حوادث هي أنفع للأدب . وأثرى للأديب ، إن الرأي عندي أن تكون كتاباً بذاته . يتوسع في بعض أبوابه ، إن لم تكن كتابين ، يراعى في أخذهما التناسق بين عدة الأبواب التي يجمعها . ويلاحظ في ثانيهما الترابط بين الموضوعات التي يقع عليها الاختيار .

لكن مهما كان الأمر ، ومهما وق هذا الاعتراض ، فدراسات الأستاذ عبد الغني حسن ، لا يتطرق إلى طرافتها ونفعها أي شك أو تصاب على مر الأزمان بالوهن أو الضعف ، فهي دائماً محل تقدير البحاث ، وملتقى لكثير من الآراء ، [illegible] أن تكون مراجع ، بجانب أنها آداب وتآريخ . . تعلم وتخيل وتخلق في الدارس الاهتمام ، وتنبه فيه الوعي . . وما اعتراضي إلا على الشكل والتقسيم والتبويب ، لا على الدراسة في ذاتها أو المعالجة في نفسها ، وهذا ما يجعلني دائماً أنتفع بها وأستفيد من مطالعتها ، وأفاد من شحناتها الديناميكية التي تخدّر العقل ، وتجعله دائماً مشدوداً ومندفعاً إلى البحث عنها ، وفي أي مكان .

أبو طالب زيان

أمير شعراء تونس

محمد الشاذلي خزندار

بقلم محمد الجمني

مولـــده :

في سنة ١٨٨٢ م ولد محمد الشاذلي خزندار أمير شعراء الخضراء فيما بعد . . ولما فتح شاعرنا عينيه وجد البلاد تسبح في ظلام دامس لليل طويل خيم بكلاكله على تونس العربية قبل ولادته بسنة واحدة فقط أي سنة ١٨٨١ ، وذلك عندما زحف عليها السرطان الفرنسي الخبيث ممتداً لها من شقيقتها الجزائر المنكوبة به ١٨٣٠ م . وحين بدأ الشاعر يدرك ما حوله، ويتعرف على المحيط به علم أن مصر الأخت الكبرى لبلاده قد أصيبت بنفس النكبة سنة رؤيته لنور الحياة . . وفي سنة ١٩١١ مد الأخطبوط الإيطالي أصابعه القابضة بعصبية وانفعال إلى ليبيا الشقيقة الملاصقة . . وفي سنة ١٩١٢ امتدت جحافل الاستعمار الفرنسي إلى المغرب الأقصى . وبذلك تم لفرنسا استعمار المغرب العربي بأقصاه ، وأدناه ، وأوسطه . وتم لإيطاليا وضع يدها على ليبيا نقطة الوصل بين الشرق العربي ، ومغربه .

وكان الجو العربي آنذاك . وعلى العموم فيه قابلية . واستعداد لقبول ذلك الظلام الزاحف عليه من انجلترا . وفرنسا . وإيطاليا نتيجة حتمية لتخلفه الثقافي وانحلاله الحضاري . وركوده الاقتصادي . وتأخره في كل مجالات الحياة . وذلك كحصاد لتركة « الرجل المريض » — تركيا — المتمثلة في الثالوث الخبيث « الجهل والفقر والمرض » . وطفقت فرنسا — بداية من استيلائها — تخنق كل نهضة لتونس . وتجهز على كل أمل وحركة . وتطفىء كل نور يسطع من بقايا شمعة خير الدين المصلح الكبير في تونس ما قبل النكبة .

وهو من زعماء الاصلاح في العصر الحديث . والمؤمنين بالتطور . والعمل من أجله . والوصول إليه .

وكان والد الشاعر المنجي إبناً لمصطفى خزندار رئيس وزراء تونس . . فشاعرنا ينحدر من عائلة تتصل اتصالاً وثيقاً بالحكم . وبابلاط المكي في تونس . . وجد شاعرنا نفسه متصلاً بالعائلة المالكة ، في الخضراء . وكان والده بعد إحالته إلى المعاش « التقاعد » رجلاً ، تقياً ، صالحاً ، منعزلاً عن الناس . بعيداً عن المجتمع نتيجة لتجربة اقتنع بها . وبصحة نتائجها . .

وعلى طريقة البيوتات الكبيرة ، لم يذهب الشاعر إلى المدرسة . بل التعليم هو الذي جاء إليه في بيته – وفي بيته يؤتى الحكم – فتولى تربيته شيخان فاضلان من مدرسي « الجامعة الزيتونية » وهما الشيخ عثمان بن المكي ، والشيخ علي ساسي . الذي أبعد إلى الجزائر فيما بعد .

وبعد إلمامه بالمبادىء الأولية ، والمعارف الأساسية من الفنون التقليدية المتبعة ظفر بأستاذ ماهر وكبير هو الشيخ الطيب بوشناق ١٨٩٦ فقنه العوم الدينية ، والعقلية ، والأدبية ، وخصوصاً علم العروض والقوافي . . وانكب الشاعر على المطالعة الحرة ينهم من المعرفة والثقافة . وكان له من مكتبة والده العامرة بمختلف الكتب ، والمراجع ، والأمهات . ووجد في فراغه ما مكنه من الإحاطة بثقافة طيبة ، ومعارف غير قيمة في الأدب العربي ، والتاريخ ، واختلط في سنواته الأولى قرض الشعر بالشاعرين : مصطفى آغه ومحمد الصالح باي ، والثاني شاعر من العائلة الحاكمة في تونس عند ذاك .

وكان شاعرنا في ذاك الوقت بدأ يقرض شعراً ذاتياً بعيداً عن المجتمع ومشاكله ، وقضاياه . وذلك لانعزاله ، وعدم اختلاطه بالشعب وما يمور فيه من تيارات ، وانفعالات ، وأحداث . . وقد سمع من زميليه الشاعرَيْن الآنفي الذكر قصائد اجتماعية يومىء إلى ما يعانيه الشعب من ويلات ، ونكبات بسبب تسلط فرنسا المستعمرة على مقدرات البلاد ، وثرواتها ، وتصرفها تصرف المالك الذي لا ينازع . . ومن خلال قصائد الشاعرَيْن بدأ يدرك خزندار مأساة بلاده ، وما تزرح تحته من عبء الاحتلال ، واستغلاله لخيرات الخضراء لفائدة أبنائه والسائرين في ركبه ، وتحت لوائه ، الذين أعطوا ضمائرهم إجازة طويلة لا تنتهي . وبدأ ضميره يتحرك ، وصدره يجيش بانفعالات ، وأحاسيس ، ومشاعر مزدحمة ، وجياشة ، وفوّارة . وكان لا بدّ لهذه المشاعر أن تبحث لها عن متنفس ، وعن منافذ تطل منها على حياة الشعب ، وتشاركه آلامه ، وآماله ، وحاضره ، وأن تعمل في سبيل مستقبل حر ، منطلق من الاستعمار والتخلف بجميع صوره ، ومختلف أشكاله ، وألوانه . وهذا لا يتأتى إلا بنهضات علمية ، وسياسية ، واقتصادية ، وفكرية ، وبانضمام

الشعب ، كل الشعب في حركة واحدة ، وجبهة متحدة تقف ضد الدخيل المستغل .

أما والدة الشاعر فهي فاطمة بنت أمير واء « الخيّالة » بالجندية التونسية وهو « فرحات قرجي » . ويبدو أنها كانت مثقفة إذ نعرف من الشاعر أن والدته هي التي علمته مبادىء القراءة ، والكتابة ، كما علمته نظم الشعر أو الكلام المنظم على حد تعبيره إذ قال :

ومن فاطمة أمي تعلمت كتابتي ومنها تعلمتُ الكلام المنظّما

زواج الشاعر :

وفي سنة ١٩١٢ تزوج الشاعر بالأميرة حسينه بنت محمد المأمون باي . وفي السنة نفسها طلبه « الباي » حاكم تونس بأن ينخرط في سلك ضباط القصر الملكي . واعتذر الشاعر ضناً بحريته الغالية أولاً ، وبعدم معرفته ركوب الخيل والفروسية ثانياً . . ولكن « الباي » ألحّ على الشاعر في الوظيفة ، فقبل .

وابتدأ الشاعر في تلقي التدريبات العسكرية على يد خبراء في التربية العسكرية حيث تعلم ركوب الخيل ، والمصارعة بالسيف . وتدرج شاعرنا في مراتب السلك العكري من ملازم ، إلى يوزباشي ، إلى بنباشي . . . وكان المفروض أن يعرف الشاعر الموظف في القصر الملكي الظروف التي يعيشها وقيود الوظيفة وأنه يستظل براية فرنسا المحتلة لبلاده وهي المتصرفة الفعلية في البلاد . . ولكن شاعرنا أدرك واجبه ، وأحس بمسئولياته كشاعر ، وآمن بعمق بقيمة الكلمة المنغمسة الموسقة وتأثيرها في الجماهير التعيسة ، فاندمج في الشعب يعيش فيه ، ومعه ، وله . يقول الشعر فيهزّ به القلوب ، ويحرك به الأحاسيس ، ويثير به المشاعر فيدفع الجموع إلى أداء واجباتها المقدسة تجاه الشعب وآماله . وصار شعره أنشودة يتغنى بها الشعب ، ويرددها في المناسبات مما دفع الشاعر إلى أن يتقدم الصفوف الشعبية الهادرة ، منشداً ، ومغنياً ، وعندما أقيمت حفلة تكريم للمرحوم عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس أنشد الشاعر فيها قصيدة وطنية حماسية مثيرة وثائرة . . . وهنا التفتت فرنسا غاضبة مزمجرة ، وأدخلته السجن العسكري . وهنا أيضاً قدم الشاعر الكبير استقالته من الوظيفة منحازاً للحرية والانطلاق من قيود الوظيفة الحديدية . وحاول « الباي » أن يثنيه عن عزمه . . وعلى كل حال بعد مدة قصيرة رفضته فرنسا لخطورة دوره في إلهاب حماس الشعب وإيقاظ مشاعر مواطنيه . . وانخرط الشاعر في الحركة الوطنية بصفة ظاهرة وواضحة في سنة ١٩٢٠ بقيادة المرحوم الثعالبي . وانتخب الشاعر عضواً في مجمع الأحرار للحزب الحر الدستوري . ومن يومها أصبح شاعر الحزب بل شاعر تونس ، وأميراً لشعراء الخضراء .

خزندار والبارودي :

ومن يقرأ حياة الشاذلي خزندار مقتطفة من شعره يدرك تشابهاً كبيراً بينه وبين محمود سامي البارودي والذي يعتبر شعره بمثابة عودة الروح للشعر العربي الحديث . وهو الذي أعاد لشعرنا قوته وبهاءه بعد عهد الانحطاط في العهود التركية المنهارة ، فكلاهما شاعر ، وكلاهما اتصل بالحياة العسكرية على طريق الوظيفة ، وكل منهما تثقف بثقافة تقليدية غير مدرسية ، ولا أكاديمية ، وكما عزل البارودي من الوزارة ونفي بعيداً عن وطنه في « سيلان » كذلك طرد خزندار من وظيفته العسكرية ، وسجن في السجن العسكري حيث اعتبرته فرنساً مسئولا عن حوادث ٥ ابريل ١٩٢٠ . هذا بصرف النظر عن ممارسة البارودي للحرب لفائدة تركيا العثمانية ، وعن المقارنة في الناحية الشعرية ، من ناحية الجودة الفنية في شكل القصيد . لأن دور البارودي في التجديد ، والإحياء لا ينكر . وان كان حسبما يبدو لي : أن خزندار كان ملتزماً لقضية الشعب وأكثر تصميماً ، أو بصورة أحد من البارودي .

خزندار وحافظ ابراهيم :

وهناك تقارب وتشابه كبيران بين أمير شعراء الخضراء ، وشاعر النيل أو الشعب كما يطلق عليه عادة في مصر . لأن كلا منهما دخل الجندية زيادة عن اشتراكهما في الشاعرية . وكلا من حافظ ابراهيم وخزندار رُفض من وظيفته العسكرية بسبب نزعتهما الوطنية . واتجاههما القومي ، ووقوفهما إلى جانب الشعب في تونس ومصر في الأزمات الصعبة ، والمواقف الحرجة ، وسجل كل منهما حوادث البلاد في شعره ، وقيد التصادم واعتداء الاستعمار على الشعب العربي في مصر وشقيقتها تونس . كما أن لهما شعراً اجتماعياً مشابهاً . وعندهما تعاطف على قضايا الشعب ، ومشاكله ، وأزماته المختلفة ومواقفه ، وأفراحه ، وأتراحه . وبالأحرى تسجيل خطواته ، ورصد حركاته ودفعه للحصول على حريته المغتصبة واستقلاله المأخوذ ، وكرامته المداسة ، وعزته المفترسة ، وكبريائه المُهان . وكلاهما هدر بمطالب الشعب ، ومنادياً بإنصافه ، وإعادة حقوقه إليه ، مع اختلاف في الحدة في المواقف ، ومختلف المصادمات . . .

خزندار وشوقي :

وهناك وجه شبه كبير بين أمير شعراء تونس وأمير شعراء الكنانة ، بل العرب جمعاء أحمد شوقي . وهذا الشبه أو التشابه يتمثل في أن كلا منهما ولد في رحاب قصور الملوك في القاهرة وتونس . وكان كل منهما مداحاً للحاكم في بلده . فكما مدح شوقي أسرة محمد علي وأولاده ، كذلك مدح خزندار محمد الناصر باي من أولاد حسين بن علي رئيس الأسرة الحاكمة في تونس في عهد ما قبل الاستقلال . وكان ممدوح خزندار قد ناصر الشعب العربي في تونس ضد الاحتلال ، وكانت له مواقف وطنية طيبة . فقرب خزندار وشوقي من القصور

الملكية وتربيتهما فيها ، ونشأتهما في رحابها ، وتحت ظلالها . كما أبعد شوقي ونفي إلى الأندلس رُفض خزندار من الوظيفة العسكرية . . كما كانا يشتركان في نظم المدائح النبوية ومعارضتهما لبردة البوصيري ، إلى جانب ميلهما إلى آل عثمان على أساس ديني . . وكما بويع شوقي بإمارة الشعر من طرف الشعراء يتقدمهم حافظ ابراهيم . كذلك بويع خزندار بإمارة الشعر في تونس من طرف الشعراء يتقدمهم الشاعران : مصطفى آغه ، وأبو الحسن بن شعبان . وهنا يحسن بي أن أبدي ملاحظة ، وهي أني عنونت البحث ، أو المقال « بأمير شعراء تونس » لا إيماناً مني بالامارة الشعرية لهذين الشاعرين ، أو الأميرين ، في تونس ومصر ، ولكني فعلت ذلك تمشياً وتقريراً للحقيقة المشاعة المعروفة ، والواقع الملموس بصرف النظر عن جميع الاعتبارات الأخرى العديدة . لأن هناك عوامل كثيرة تدخلت في هذا الموضوع بعيدة عن الشعر ، والفن ، والجودة ، ومضمون الشعر ، ومواقف الشعراء من قضايا الشعب ، ومشاكله ، وإنما هناك عوامل اجتماعية ، واقتصادية ، وسياسية ، وغير ذلك . . .

وهناك ملاحظة ثانية أريد إبداءها . وهي أن تونس الأدبية بمعناها المتسع الرحب دائماً وأبداً تريد تقليد الوسط الأدبي في القاهرة مُنذ زمن بعيد . . . والمغرب العربي في مجموعه، يرى مصر مثله الأعلى المطلوب الوصول إليه ، والنموذج الواجب الاحتذاء ، والمحاكاة . وهو محق في ذلك من ناحية ، كما أنه مدفوع من ناحية أخرى بنوع من رد الفعل عن حرمانه من الاتصال بالشرق العربي عموماً ، والقاهرة على الخصوص . فنرى تونس الأدبية لما رأت شعراء مصر نادوا بإمارة أحمد شوقي على الشعراء . فعلت تونس وشعراؤها ذلك بالشاذلي خزندار فبويع بالإمارة الشعرية . كما نرى العرب في تونس الأدبية أطلقوا على الشاعر الحفناوي شيخ الشعراء تقليداً للقاهرة في إطلاقها ذلك اللقب على اسماعيل صبري . وأسمت تونس الأدبية محمد العربي الكبادي شيخاً للأدباء . وهي مقتفية في ذلك آثار القاهرة في تلقيبها أحمد زكي باشا بشيخ العروبة . . كما أطلقت القاهرة لقب شاعر الشباب على أحمد رامي ، كذلك تنازع ذلك اللقب في تونس الشاعران : محمد المرزوقي، ومحمود بورقيبه . ولعوامل بعيدة عن الشعر والأدب فاز باللقب بورقيبه دون المرزوقي . . . وإلى هنا يبدو لي أننا ألقينا نظرة — وإن لم تكن واسعة وكافية وشاملة — تعطي فكرة عن الوضع الأدبي في تونس .

وشاعرنا ينتسب إلى المدرسة التقليدية الجديدة في الشعر العربي . أعني مدرسة شوقي وحافظ ابراهيم . فهو متتبع شعرهما ، ومقتف أمرهما حيث عارضهما ، وحاول الوصول إلى مستواهما الشعري . .

وقد صدر للشاعر ديوانان : الأول نشر ١٩٢٤ على نفقة « دار النديم » لصاحبها

حسين الجزيري ، وهو شاعر ، وأديب ، وصحفي ، وناشر ، وصاحب مجلة « النديم » الأدبية . وكتب مقدمته المرحوم محيي الدين القليبي . أما الديوان الثاني فقد ظهر في سنة ١٩٢٦ ونشرته « دار العرب » لزين العابدين السنوسي وهو كذلك أديب ، وشاعر ، وصحفي وناشر ومؤلف كتاب « الأدب التونسي في القرن ١٤ » وهو الذي احتضن شاعر الحرية في تونس بله الوطن العربي « الشابي » في بداية حياته الأدبية إذ فتح له صدر مجلته « العالم الأدبي » قبل أن يتصل الشابي بمجلة « أبولو وجماعتها في القاهرة » .

ويحتوي الجزء الأول حسب فهرسته على « القسم الوطني » و « القسم السجني » و « الحماسي » و « التاريخي » و « الأدبي » و « الغزلي » و « التهاني » و « الخصوصيات » و « الرثاء » و « الملحقات » . وأنا هنا سأحاول نقل بعض الأبيات للقارىء حتى يأخذ صورة عامة عن موقف الشاعر من أحداث عصره ، وبلاده ، وآرائه ، ومعتقداته . فقد قال من قصيدة معنونة « بصوت الأمة » . ونشرت هذه القصيدة في جريدة « الأمة » في عددها الأول الصادر في ١٩٢٠ م . وهذه الصحيفة هي لسان حال الحركة الوطنية المنبثقة سنة ١٩٢٠ والتي انتسب إليها الشاعر ، وانتخب في « مجمع الأحرار » ، ومن يومها إلى يوم وفاته سنة ١٩٥٤ وهو محافظ على مبدئه ، ومؤمن بسلامة معتقده ، عامل في سبيل ذلك ما وسعه الجهد والعمل .

يا أيها الشعب الكريمُ تيقظاً ... هبّتْ رياحُك والزمانُ مُواسي
كنْ في المبادى صادقاً وافتحْ لها ... تيّاره الصافي (١) مع الأنفاس
واضربْ على الأوتار ضربة لازبٍ ... واشرب مع الأحرار نخبَ الكأس
وانشر مباديك الصحيحة بينهم ... علناً وقلْ : هل من فتىً حسّاس
واجهرْ بما سمح الزمان بجهره ... واسلك بنهضتهم سبيلَ سياسي
وادفع خصومك بالتي ... ودع السّوى يضرب لها الأخماس في الأسداس

* * *

وهكذا تمضي القصيدة حماسية خطابية ثائرة ومثيرة . والشاعر جماهيري ، حزبي . ولهذا نراه ينهج نهج الأسلوب الخطابي المثير الهايج بدلاً من المنهج العقلي الهادىء ، والمنطقي . . . فهو يريد إثارة الشعب ، ودفعه للكفاح والنضال لنيل حريته ، وطرد الغاصب المحتل من بلاده . . . ونراه في قصيدة « استقبال أمة لرجل » استقبل بها الشاعر المرحوم عبد العزيز الثعالبي سنة ١٩١٢ عند عودته من منفاه كزعيم للحركة الوطنية فيخاطبه هكذا :

دون اقتناء المجد كلّ كريهةٍ ... فاصبرْ لها تتحسّنُ الأحوالُ

---

(١) الصافي هو الأستاذ أحمدالصافي الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي سنة ١٩٢٠.

والسجنُ والأبعادُ عارٌ إنمــــا ما العارُ الا العجــزُ والإذلالُ
كم من شريف في القيود مكبّل وفتىً وضيع سرّه التجــوالُ
ومن الشّقاء تسلّط البسطا على أولى العقــول فداؤها الجهّــالُ
يا نخبة الأحــرار في خضرائنا أنتم وإيــاه لهـا الأنجـالُ
يا ابْنَ البلاد وفي يديك زمامها والحِـــل لو أحبَبْتَ والتّرحالُ
إن التي اغتصبَتْ بلادك قصْد هـــا استغلالها ومرادنا استقلالُ
لا أستطيع أثــير قومي إنمــا لي من ورا إيقـــاظهم آمـــالُ . . .
فتشجّعوا بمعــارف وتمــولوا فمعَرَّتان : الجهــلُ والإقْلالْ

* * *

والقصيدة فيها من الإثارة ، والدفع ، والنصيحة ، والحِكم ، والشكوى ، والدعوة ، إلى التعليم ، وبناء اقتصاد البلاد ، وإخراجها من دائرة الفقر ، والإقلال ، والحاجة إلى الحياة الرخية الهنية . والناس ، أو الشعوب ، أو الدول ، عند الشاعر أقساماً : منهم الجامد ، والجاهل ، والموظف ، والحاكم ، والخائن ، والخائف ، والساخر ، والناهض، والناعق . . .

وقد وصف لنا الشاعر : الحاكم ، والخائن ، وخصوصاً الحاكم غير الديمقراطي في الدول المتخلفة ، أو النامية على التعبير الجديد الخفيف أحسن وصف وأدقه ، وأكثره واقعية ، ومشاهدة ، ومعايشة :

وقسم حاكم طــاغ يسوق الناس أنعامـــا
أنانيّ بــلا ريـــبٍ يرى الأحرار أخصامـــا
ذئاب في مراعينـــا رأت في الحي أغنـــاما

أما الخونة ودورهـــم في وسط شعبهم ، فقدْ وصفهم الشاعر بقوله هكذا :

وقسم خائنٌ يمشي وراء النـــاس نمّـــاما
فلا جنساً ولا دينـــاً يناجي الكـــلَ نهّـــا ما
إذا ما قيـــل دينـــارٌ على وجــه الثرا هامـــا

وأما النوع الخائف ، أو الخوّاف في الشعوب وهو كثير ونظرته إلى السلطة :

يرى الأحكام أغــلالا يرى الشرطيّ ضرغـــاما

وأخيراً يلخص لنا الشاعر حالته وسط الأنواع المختلفة ، والأنماط المتباينة ، وموقفه فيقول :

أنا ما بينكم صـــوتٌ بكم أصبحتُ نظّـــاما

نشيــدآً بينكم هــذا تغنــوا فيه آنغــامــا
بألحــانٍ شجيــاتٍ تزيــد القلب إضرامــا

وفي سنة ١٩٢٠ تناول الأمير « محمد الناصر باي » عن العرش احتجاجاً منه على فصل فرنسا السلطتين : القضائية والادارية . . وهذا الباي وهو ممدوح شاعرنا . وكان وطنياً يقف إلى جانب الشعب ويناصره وهو والد « محمد المنصف باي » الذي نفته فرنسا في أواخر الحرب العالمية الثانية إلى الجزائر أولا ، ثم إلى فرنسا حيث مات في منفاه في مدينة « بو » الفرنسية سنة ١٩٤٨ م . وانبرى الشاعر في هذه الحادثة ، وقال قصيدة طويلة ممضاة باسمه الصريح وهو ضابط إذ ذاك بالحرس الملكي . وعنوان القصيدة « لسان الشعور » ، وقد لخص فيها الوضع السياسي على حقيقته عند ذاك وعبر عن قصد الشعب ، وآرائه ، وقلقه، واضطرابه ، وهياجه ، على فصل السلطتين : القضائية والادارية . ومنها هذه الأبيات:

وحرضْ عن صحيحات المبادي جهاراً في جهــارٍ في جهــارِ
وقل هذا شعور الشعب أبدى أمانيــه لتصبح في اشتهــارِ
ولج باب الخصوص وقل سلامٌ على الأحرار في هذي الديارِ

* * *

فكنْ يا ابنَ البلاد حليف صِدق وإخلاصٍ وقلْ هذا شعاري
لتلبس تونس الخضراء تاجــاً وينزع شعبنا ثوبَ الصغــارِ

وكان خزندار من أول عهده بالشعر يرصد خطوات الشعب ، ويراقب سير نهضته ، ويبارك انفعالاته ، وإقباله على النهضة وقبوله للتطور ، وإيمانه به . فنراه في ابتداء نهضته سنة ١٩١٠ م يستنهض الهمم ، ويثير المشاعر ، ويحدو الركب السابر بقصيدة عنوانها « كفى سُباتاً » يقول فيها :

طال السّباتُ فشأننا استلقــاءُ وكأنمــا شلّت لنــا الأعضــاءُ
إن المنام عن الحيــاة يذلنــــا ناموا ويكفي أنكــم أحيــاءُ

وفي القصيدة سخرية مرة ، من هذا النمط من الحياة الراكدة . وفي القصيدة مقارنة صريحة بين الشعوب الناهضة المتقدمة ، وبين شعبنا العربي في تونس الراكد عن الحركة ، والقانع بما عنده ، والراضي بما هو فيه ، ويتعجب شاعرنا — وحق له التعجب — كيف لا يلتفت هذا الجيل إلى تاريخ جدوده ، وما فيه من أمجاد ، وبطولة ، وحضارة ، وصحائف ملأى بالفخار ، والزهو ، والانتصار ؟؟؟

هذى تآريخ الجدود وكلّهــا صحف تطيبُ بذكرها الأنبــاءُ

* * *

وخزندار شاعر قضية ، شاعر شعب ، شاعر ملتزم ، له هدف يدعو إليه وقضية يدافع عنها ، ومستقبل بشر به ، وحاضر سيء يحاربه ، وماضٍ مجيد يفتخر به ، ويعتز . ولهذا نراه يدعو إلى نبذ « الغزل » ، و « التشبيب » بالولدان والحور . وبالأحرى نراه يدعو الشعراء إلى التزام القضية الوطنية والسير في خطها ، والعمل من أجلها . . . والالتزام الأدبي هو أن يلتزم الأديب بقضايا الشعب وبواقعه ويترك الخيالات ، والأوهام والمشاعر الذاتية ، والاستبطان النفسي :

دع التشبّب في الولدان والحـور ... والهج بحرية واهتف بدستور
وانشد على وتر الاحساس أغنية ... شتّان ما بين منظوم ومنثور
وابعثْ من الشعر روحاً في مشاعرهم ... بعث المرائي إلى الابصار بالنور
واذكر مطالب شعب ليس ينكرها ... إلا الحليفانِ : مأجورٌ وذو جورِ

وفي سنة ١٩١١ وقع مشكل كبير بين شركة الترام وهي أجنبية ، وبين الشعب العربي في تونس . وتأزم الموقف . وانقضت فرنسا على زعماء الحركة العمالية الذين دعوا إلى الاضراب ، ومقاطعة الترام . ومنهم المرحوم الثعالبي وعلى باش حانبه فنفتهم عن تونس ولجأوا إلى تركيا ومصر . وهنا وقف الشاعر يندد بهذا التعسف والظلم وأرخ هذه الحادثة بقصيدة بعنوان « ضحايا الاغتصاب » بيّن فيها أنه لا يملك الأسلحة للحرب والكاح الإيجابي . وإنما هو شاعر فقط لا يملك إلا الكلمة المنغمة المنظومة الثائرة يصور فيها فظاعة الاجراءات المعادية « للحرية والديمقراطية والمساواة » :

أبكي لفرقتهم وهـم أحياءُ ... سبعاً بكتهم تونس الخضراءُ
ما كان في كفّي الحسامُ وإنما ... من تحت فكّي حيةٌ رقطاءُ
أرسلتها حصبـاً على مغتالهـم ... فتريه ماذا يفعل الشعراءُ ؟
سأهزّ من قومي الذين بلوتهم ... ما ترتضيـه الهمّةُ القعساءُ
عربية الاحساس في نخواتهـا ... لله تلك النخـوةُ العـرباءُ
دعهم يريقوا يزهقوا يستنزفوا ... ينفوا يبيدوا يفعلوا ما شاءوا
واسترسلوا في الأمر دون تراجـع ... فالحبـل منه انشقت الصمّاءُ

وكثيراً ما استخدم أمير شعراء تونس « التوشيح » ، وهو عبارة عن « دور » و «لازمة». فاللّازمة بيتان يبدأ بهما على وزن واحد وقافية واحدة . ويأتي بعدها « الدور » وهو عبارة عن ثلاثة أبيات ذوات قافية موحدة ، ومختلفة عن قافية « اللازمة » .

لازمة :

عاطني يا تونسي في نخبهـا ... كأس صفـو وبرياهـا اسقني
فهي ليـلى وأنا قيس بهـا ... ومن الإيمـان حبّ الوطـنِ

دور :

شهرتي في حبهـــا شهرتـــهُ قل كفى هذا التعالي شرفا
وكـــذا قـــل غـــيرتي غيرتهـــا فبحمد الله نحـــن الخلفـــا
فكـــلانا أينعـــت زهرتـــه وكلانا بالغـــرام اتّصفـــا

وفي هذا التوشيح أبانَ خزندار عن حبه للخضراء ، وتفانيه في هذا الحب ، والتغنّي بجمالها ، وتسجيل أمجادها ، والاشارة إلى دورها التاريخي ، وما ساهمت به في الركب الحضاري العربي ، واعتبرها بين أخواتها العربيات كقصيدة « بانت سُعادُ » بين القصائد .

والشاعر يحب بلاده ، وحبه لها صرفه عن اللهو بالغواني ، ولذات الحياة . وانصرف إلى الجديّة في حب بلاده ، والدعوة إلى استقلالها ، وتعبئة الجماهير لفائدة تحريرها من القيد الاستعماري الغاشم :

مالي وللغـــواني والهـــوى واحتسا الصهباء من جوف الدنان
إنما حبّي لشعبي قـــد ثوَى في الحشا قل هكذا الحب المُصان
فلتهزوا أيها القـــوم اللـــواء في حِمى الخضراء فوجه الحق بان

* * *

وقام اليهود أو الطائفة الاسرائيلية في تونس بمحاولة الانسلاخ عن المحاكم العربية التونسية ، والالتحاق بالمحاكم الفرنسية المحضة . وهو انحياز صريح ووقح من اليهود إلى فرنسا المستعمرة لتونس ، وازدراء بالمحاكم التونسية والشخصية العربية واضح وصريح . رغم سيطرتهم على رأس المال ، وأسواق الذهب في تونس . فقام الشعب العربي بمظاهرة كبرى استنكاراً واحتجاجاً على موقف اليهود الشاذ ، وما فيه من استفزاز لأهل البلاد . وهنا وقف الشاعر يهدر بقصيدة بعنوان « المظاهرة » ندد فيها بهذا الموقف ، وبيّن معاملة الشعب العربي لليهود المتسمة بالسماحة ، والعدالة ، والمساواة في الحقوق ، والمعاملة وقد تزعّم ذلك الانسلاخ المحامي الاسرائيلي « فيتوسي » ، وقد خاطبهم الشاعر بقوله :

يا بني إسرائيل مهلاً لمـــاذا تطلبون المروقَ وهو خطيرُ ؟
اغتررتم فخلتمـــونا جمـــاداً ومن الزند فالشرار يطـــيرُ
قد رقدنا كغـــيرنا وانتبهنـــا فانتفى النوم واستنار الضميرُ
أيقظتنا يـــد اضهاد فثرنا وكذلك المضغوط عنـــه يثـــور

* * *

وفي هذه القصيدة يلمح الشاعر إلى الاشتراكية باستحياء :

فلتمـــدّوا يد التعاون حـــتى يتساوى غنيكـــم والفقـــير

ونرى الشاعر يحارب القديم البالي المتعفن ، والأفكار المحنطة ، ويدعو للتعاضد والتلاؤم

مع مستحدثات العصر ومنتوجات الحضارة :

فلتزيحوا ما كان من عهد عادٍ   واستفيدوا ما أحدثته العصور

ويحاول أن يجعل الدين غير معوّق للنهضة والانطلاق . وغير مقيد للتقدم ، وغير موقف للتطور ، والتغير ، والتبدل الاجتماعي فيقول :

لا ينـــافي قط التمدّن ديني   في حمى الـــدين تقيم الأمور

وفي عجز البيت يؤمن بأن الدين يحل كل مشاكل المجتمعات ، ويشيد إلى موقفه ، وإلى شعره ، وما يقوم به من تيقظ وانتباه فيقول :

رقّ شعري ، وراق فيكـــم نظامي   فأنا اليوم بالنشيد جــــرير

قيل لي أنت تقرض الشعر هلاّ   قلت شيئاً ترويه عنك الصدور ؟

فاقتعدت المنصة اليـــوم حتى   قلتُ فيكم ما لم يقلهُ جَرَيرُ

فاشربوها صهباء لا غَول فيها   واستلـــذوها فالقريض عصـــيرُ

وتغنّـــوْا تحمّساً بنشيـــدي   حيث طرفي بالمنشدين قـــريرُ

* * *

ويعود الزعيم الثعالبي من منفاه ، ويحتفل به السيد الطاهر آغه . وفي هذه المأدبة ينشد الشاعر قصيدة « لك الفخر » ، وهي القصيدة التي كانت سبباً في سجن الشاعر خمسة عشر يوماً بالسجن العسكري لأنه كان موظفاً بدرجة ضابط في الحرس الملكي ، وجاء في هذه القصيدة مدح للثعالبي قوله :

تجردتَ للخضراء ترفـــع شأنها   وتجمع من أشتاتنا ما تفرّقا

وقمت مع الأحرار للحقّ داعياً   وللباطل الممقوت بالحـــق مُزْهِقا

وأفعمت بالاخلاص قلباً وقالباً   وأبحرت بالآمال وحدك موسِقا

فلا السهد مشكو ولا الخوف حائلٌ   ولا العزم منبتّ ولا الخطب متّقى

إلى أن يقول :

فلم يبقَ شعبٌ لم يطالب بحقه   ولم يبقَ حكمٌ في الممالك مُطلَقــا

والقصيدة في مجموعها حماسية ، باعثة ، ودافعة للعمل ، ومحرضة على المطالبة بالحرية والاستقلال . . . ولقد أزعج السلطات الفرنسية هو أن ناظمها ضابط بالحرس الملكي بالقصر . . . والشاعر ينحدر من عائلة متصلة بالقصر والحاكم . وزوجة الشاعر « حسينة بايه » من العائلة المالكة . هذه النماذج المنقولة من الديوان مأخوذة كلها من « القسم الوطني » كما جاء في الفهرس . . وقد رأينا أن الشاعر صريح في نزعته الوطنية ، كما له مشاعر قومية عائمة ، وغير دقيقة ، وهو كشوقي ، بل كأكثر الشعراء في عهده له ميول عثمانية ، بسبب العنصر الديني أو بسبب استغلال الأتراك للدين الاسلامي لكي يتحكموا ويستغلوا

ويسودوا . وتركيا في هذا المجال « مجال استعمارها للعرب » لا تختلف عن بقية الاستعمار الغربي بجميع أنواعه ، ومختلف أنماطه ، واختلاف مناهجه ، وطرقه . وتميز الاستعمار التركي للعرب ، بالجهل ، والتخلف الاقتصادي ، والزراعي ، والعمراني . وكان الأتراك ينظرون إلى العرب نظرة احتقار وازدراء . وهدفهم تتريك العرب . وكانوا يحاربون اللغة العربية . وذلك لفهمهم أنها العنصر الأول ، والمقوم الأهم ، والأساسي للقومية العربية . والآن سنترك هذا القسم لنتحول إلى « القسم السجني » .

ويحتوي هذا القسم على أربع عشرة قصيدة . وهذه القصائد عندما نقرؤها أو نسمعها تتبادر إلى أذهاننا « روميات أبي فراس الحمداني » وما فيها من الحنين ، والشوق ، واللهفة ، وترقب الفداء ، وانتظار الانطلاق ، والافلات من قبضة الروم ، والعودة إلى حلب الشهباء ، وأمجاد الحمدانيين ، كما تذكرنا ببكائيات المعتمد بن عبّاد . . . وما فيها من مقارنات بين حالته وهو حاكم ووضعه وهو أسير مقيد ، وحالة بناته وهن يمشين حافيات الأقدام ، مرتديات الأطمار والخرق ، بعد التبختر بالدمقس والحرائر . وعندما نقرأ هذا الشاعر بحرية شعبه ، وحق مواطنيه ، إيماناً قوياً ومطلقاً ، وغير محدود . كما نفهم قيمة الشاعر عندما يؤمن بمبدإ ، ويدافع عن قضية ، ويضطهد في سبيل عقيدة أو رأي ، أو مذهب فكري . وكيف يصوغ قضيته في قصائد ومقطوعات تعبر عما يعانيه المؤمن في سبيل القضية ..أو المبدأ . . . وفي بداية هذا القسم نرى صورة للشاعر بلباسه العسكري . وقد كتب تحتها البيتين الآتيين :

دخلتُ السجنَ محسوداً عليهِ كذلك يُسجَنُ الرجلُ الشريفُ
فكم حطِّ الوظائف من خسيسٍ وكم رفع السجون فتىً عفيفُ ؟

ويبدأ الشاعر قصيدة بعنوان : « الجندي رغم أنفه » هكذا :

خذ الكاسات واشربْ من مُدامي فدنُّ العدل مفضوض الختامِ
رأوْني في الزعيم نظمتُ شعراً وقولي بين قومي كالسهامِ
وإني ناشر الاحساس فيهم وحسبي أن أقل قالت حذامِ
وإني باعث الموتى نشوراً بإذن الله تنهض في ازدحامِ
يُردِّدُ في المحافل صوتُ شعري وتُنصَب في نواديهم خيامي

إلى أن يقول :

أجندياً أراني رغم أنفي وأخضع للحكومةِ بالتزامِ
وما تلك الوظائف لو نظرتم بعينِ عدالةٍ إلا أسامي . .

وبعد أن يظهر الشاعر ازدراءه بالوظيفة المقيدة للحرية ، والمعوّقة عن الانطلاق ،

واحتقاره للقيود والسدود ، وتجلّده على فراق الزوجة ، والأولاد ، والأحباب . وذلك لأنه شغل بحلاوة الكفاح ، ومحاربة الباطل ، والدفاع عن حرية بلاده ، وانطلاق مواطنيه، وفي هذا عزاؤه في سجنه وإبعاده :

شُغلتُ عن الجميع بحب شعبي رعاه الله والاخلاص نامِ
وبتُّ بحبّ خضرائي أنيساً وباتت لي المعاني في ازدحام
وإن الدعوة الكبرى لشعبي أقامتني وأوجبت انضمامي

* * *

أحبّ أن ألاحظ للقارىء أو للسامع أني لم أنقل الأبيات متتالية ومتتابعة ، بل اخترت الأبيات وخطفتها من أماكنها غير مهتم بترتيبها الطبيعي في القصيدة . . . والقصيدة الثانية هي « قالوا حُبِسْت » :

قالوا حُبستَ فقلت ليس بضائري حَبْسي وفوق الرأس تاج مفاخرِ
زعموا بأنّ لديّ خطة ضابطٍ ونسوْا بأنّ لديّ خطة شاعرِ
صحف البلاد شهيدة بقصائدي فيها ، وكانت أبحراً لبوَاخري
وهي المواقف في الجموع شهيدةٌ أيضاً بوقفة شاعر ومسامر
ما لي وللأشهاد فهي ظلامةٌ سيضمها التاريخ ضمن دفاترِ

ويترك شاعرنا وظيفته السامية وهي ضابط في الحرس الملكي بالقصرْ ، ويقنع بحياته الحرة من تبعية الوظيفة ، وقيودها ، مكتفياً بشعره ، وأقلامه ، ومحابره ، بعد أن عرف عن تجربة أن الفوز في تلك القصور للغادر البائع ضميره ، وكرامته .

وسأكتفي بوظيف شعري عائشاً ما بين أقلامي وبين محابري
هذي الحياة شريفة وتلذّ لي ولها خلقتُ وطار فيها طائري
إن شئتُ كان الشعر سيفاً قاطعاً أو كان إن أحببتُ كنز جواهر
أحمي به وطني ، وأنصر أمتي قل هكذا والله فخر الظافر
في حُبّ تونس قد أصِبتُ ولم يزلْ قلبي غريقاً في الغرام الطاهرِ

* * *

ولما سجن الشاعر بالسجن العسكري ، حزنتْ تونس ، وأسفتْ على بلبلها الغريد : وصوتها العالي المدوّي في الآفاق ، مطالباً بحقها في الحياة الحرة الكريمة :

أسفتْ لسجني ، واشتكت لشكايتي سكانها حتى كرام حرائر

ومن السجن العسكري يخاطب زوجته ، وهي أميرة من أميرات العائلة المالكة ، وقد كانت كزوجها تعتنق الفكرة السياسية ، ومنضمة للحزب الحر الدستوري في أول تكوينه .

وهو يرجوها أن تصبر ، وأن تخفف عن نفسها ، وأن لا تبكي . لأن ذلك سيجره إلى البكاء والضعف :

إني سُجنتُ فزدتني شرفاً فلا تبكي ، بكاؤك قد يجرّ بكائي
قبلي لقد سجن الكرام كيوسف فسلي زليخا بل سلي خضرائي
فيها بها ولها سجنتُ تولّهاً هي تونس عين الدوا والداء
لا تستشيطي زوجتي غيراً فما ميلي لها كالميل للعذراء

* * *

ويسترسل الشاعر ذاكراً كل أفراد العائلة . ولكنه خاف على نفسه طغيان العاطفة ، خشي أن يجرّه هذا الذكر إلى الضعف والخور ، وأخيراً إلى الجبن والاستسلام ، ومنها إلى عدم الاحساس بالمسؤولية تجاه الوطن وحريته :

خفتُ الحنانَ يجرُّني للضعف لا أرضاه لي أأنا من الجبناء ؟

ويستعيض عن ملابس الوظيفة الرسمية ، وما رسم عليه من نجوم وزخرفة ونياشين بملابس الوطنية ، والاحساس بحقوقها والدفاع عنها :

ولبستُها مشرفاً وطنيتي أحبِبْ بها ودخلتُ في الشرَفاءِ
طال اصطباري عن تدنّس رتبةٍ هي في الحقيقة رتبةُ العظماءِ
أأرى بها منعي على نشرية ما بينهم وأنا من الشعراءِ ؟
ما كنتُ أترك خدمة الأدَبَا ولوْ عُرِضَتْ عليّ وظيفةُ الوزراءِ

* * *

ويبدو أن الذي دفع الشاعر لهذا الموقف الوطني العنيف المتطرف ما شاهده من النماذج الثلاثة في بلاده ، وهي الأنانيّ ، والخائنُ ، وبين هذين المخلص الذي يرمي نفسه في نار المعمعة ، وأتون المعركة ، فداء لحرية وطنه ، وانفلات مواطنيه من قيود الاستعمار :

هذا أنانيٌّ وذلك خائِنٌ والثالثُ المدفوعُ للهيْجاءِ

مناجاة تونس .

ومن داخل السجن العسكري بتونس ناجى شاعرنا الكبير تونس الخضراء مناجاة حب صادق وأمين . وكيف لا يُناجيها وهو المسجون بسببها ، لأنه كافح في سبيل حرية خضرائه ، واستقلال بنيها ، وتخليصها من الكابوس الاستعماري البشع :

سلا تونس عني وعنها سلانِيَا أنا ما بها أدرى وتعلمُ ما بِيا
سُجنّا معاً فازداد كلٌّ صبابةً وما غاب كل عن أخيه ثوانيا
أعدَّ لنا الحسادُ بالسجن خلوةً فزدنا التحاماً عندها وتشاكيا
ودارتْ كؤوسُ الحب بيني وبينها وكان بها مجرى السلافة صافيا

تُنادي انتسبْ يا شاذلي قلتُ تونسي فقالتْ أنا للشاذلي إذ غدا ليـــا
فتحتُ لها صدري وقلت تفضلي فقالتْ وهل فارقتُ يوماً مكانيـا ؟
سأحيا لها فكراً وجسماً وبهجةً وها هي في قلبي وها هي هاهيــا

* * *

هذه الاندفاعة من الشاعر في طريق السياسة ، وهذه الدفقات الشعورية الحساسة منه تجاه وطنه ، وهذا الاخلاص الطاغي ، الهادر ، والاندماج في الشعب ، ومعه ، وله ، والمناداة بحرية تونس جهرةً وبدون التواء ، والاستعداد للتضحية من شاعر موظف في القصر الملكي لفتت إليه الأنظار . وتمنّى الناس الخائفون له غير هذا الموقف ، ولاموه عليه ، وسألوه لماذا تقف هذا الموقف ؟

والحقيقة لان حب الانسان لبلاده عند بعض الناس يكون طاغياً ودافعاً بحيث لا يستطيع التأني ولا الاصطبار . ولكن نتيجة هذا الاخلاص ، والوطنية الصادقة تكون غالباً : الحرمان والتجويع . وهذا ما وقع للشاعر ولأمثاله في كل زمان ومكان وفي كل الظروف :

دخلتُ مـــداخلاً لا بدّ منهـــا أتسألني ؟ ولستُ ألامُ عنهـــا
وإني فارسُ الهيجـــاء شعـــراً وهذه كلمةٌ بالعقـــل زنْهـــا
وإن خان السّوى الخضرا فإني بوزن الأرض مالاً لم أخنْهـــا
طـرّحتُ وظيفةً جلبتْ هواني أتجلب لي الهوانُ ولم أهنهـــا
محيّةُ تونس سجنَتْ بنيهـــا ويخشاه الجبانُ فلـــم يُبنْها

* * *

وهو شاعر قبل أن يكون عسكرياً ، وهو جندي رغم أنفه كما يقول :

لئن سُمّيت بالجندي رغْماً عليّ . وإن يكن شرفاً ثمينا
فقد سُمّيتُ في الشعَرا كبيراً برَغمي ، والحقيقة كنتُ دونَا
فها أنا شاعرٌ فيهم وجنـــدي وذو السيفَيْنِ أفتحُها حصونَا

وفي البيت الثاني يشير الشاعر إلى مبايعته بالامارة الشعرية في حفل كبير برئاسة الشاعرين الكبيرين : مصطفى آغا ، وأبو الحسن بن شعبان :

ودارت الكأس بالآداب واعترفوا لي بالامارة قل أحببْ بذي اللقب
وهذه راية قد سُلّمت ليَدي من صفوةِ الأدَبَا لم تُشْرَ بالنشبِ

ويحتار الشاعر هل هو جندي ؟ أم هو شاعر ؟

أسائلكـــم أنا من أيّ صنفٍ أجنـــديّ ؟ وفي الشعَراء صفّي
نعم لي السيف دون غمـــد ودون تحيـــة لم تدرِ كفّي
أجل سأسوق من شعري جيوشاً وكلٌ في الوغَى بمقام ألفِ

وشاعرنا لا يستطيع أن يرى بلاده مضطهدة ، ومستغلـــة . وذليلة . ويسكت كالآخرين :

أأراهـــا وإخــوتي في شقاءٍ   وأقضّي الحيـــــاة بالتّمويــــه ؟

وهو لا يستطيع إلا أن ينادي بلاده . مستنهضاً همم أولادها . ليخوضوا المعركة من أجلها ، ويخلصونها من الظلم والطغيان والجبَروت :

أناديهـــــا ومـــا لي لا أنـــادي   بلادي « تونس الخضرا » بـــلادي ؟
أيجمـــــلُ بالشبيبــــــة وهي أمٌّ   لهم أن يتركوهـــا في اضطهاد ؟

* * *

أتونس ليس لي في السجن إلا   محبّتك العريقــــةُ في فؤادي
وما المسجونُ مثلي اليوم إلا   كمثل النار تكمنُ في الزنــــادِ
وما الأشعارُ إن جاشتْ بصدري   سِوى قضبٍ مسددة حِدادِ
أذودُ بها عن الوطنِ المفــدّى   وأحمي « تونسَ الخضراً » بـــلادي

هذا هو أمير شعراء تونس محمد الشاذلي خزندار الشاعر الملتزم بقضية بلاده ، ومستقبل مواطنيه ، والمدافع عنها في إخلاص وحرارة ، والمؤمن بحقها في الحرية والاستقلال . والذي لم يزده السجن العسكري إلا إصراراً على المطالبة بحق وطنه في الانطلاق من القيد الفرنسي . وطوال حياته الممتدة من ١٨٨٢ م إلى ١٩٥٤ وهو يناضل . ويكافح بشعره الحماسي الثوري والمثير .

وهذه المقتطفات من ديوانه الأول والتي اخترتها من البابين الأولين « القسم الوطني » و « القسم السجني » فقط . وقد وجدت نفسي عاجزاً عن الالمام بأغراضه المختلفة في حلقة واحدة . ولهذا اكتفيت بهذا القدر من النماذج المقدمة راجياً أن تتاح لي الفرصة قريباً لأعود إلى أبواب الديوانين . وهي : القسم الحماسي ، والتاريخي ، والأدبي ، والغزلي ، والتهاني ، والخصوصيات ، والرثاء ، والشذرات .

أما مواضيع الديوان الثاني فهي مشابهة لموضوعات الأول .

وقبل أن أختم هذا البحث أو المقال على التعبير الأدق أريد أن أشير إلى أواخر إنتاج الشاعر في أخريات حياته :

الملاحظة هي أن الشاعر في آخر حياته اقتحم باب الشعر القصصي . حيث لخّص شعراً خمس حلقات من مجلة « ألف ليلة وليلة » سنة ١٩٥٤ . وهي قصة طويلة بعنوان « لقيط الظلام » وأعجب بها المرحوم : كرم ملحم كرم صاحب المجلة المشار إليها .

هذا المقال ، ولا أقول البحث حاولت فيه أن أعطي صورة واضحة عن شاعر كبير من شعراء العروبة في المغرب العربي الكبير وأرجو أن أكون قد وفّقت بعض التوفيق .

واجبات المواطن ومسئولياته

مقدمـــة :

إنه من المنطقي جدا بعد أن تحدثنا عن حقوق المواطن الصالح أن نتبع ذلك بالحديث عن واجبات المواطن ومسئولياته . فحقوق المواطن مرتبطة بواجباته . ولا يصح لأي مواطن صالح أن يطالب بحقوقه إذا لم يؤد ما يقابلها من واجبات ومسئوليات نحو نفسه ونحو أسرته وعشيرته وقريته ومدينته ومواطنيه ومجتمعه ووطنه الليبي المباشر ووطنه ومجتمعه العربي الواسع ومجتمعه الاسلامي والمجتمع العالمي والانساني بصورة عامة . ومن مميزات الحياة الديمقراطية السليمة هي الموازنة بين الحقوق والواجبات والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات . وواجبات المواطن الصالح كما ترتبط بحقوقه فإنها ترتبط أيضاً بالصفات التي يجب أن يتحلى بها والتي أشرنا إلى بعض منها في الفصل الرابع من هذا البحث . فبالرغم من أن مسئولية غرس تلك الصفات في نفس المواطن لا تقع على المواطن وحده فإنه يقع عليه العبء الأكبر في هذه المسئولية . وخاصة عندما يصل إلى السن التي يستطيع فيها أن يستقل . أو على الأقل يقوم بالدور الأكبر في تربية وتوجيه نفسه . وهذا يعني أن كل صفة من تلك الصفات تتضمن أو تحمل في طياتها واجباً من واجبات المواطن .



الصالح

بقلم الدكتور: عمر التومي الشيباني

ومن النقاط الرئيسية التي سنناقشها بإيجاز في هذا الفصل هي النقاط التالية :

١ – تحديد معنى الواجبات .
٢ – تقسيمات واجبات المواطن وأنواعها .
٣ – المبادىء التي ينبغي أن نقيم عليها فهمنا لواجبات المواطن .
٤ – أهم واجبات المواطن الليبي الصالح .

١ – معنى الواجبات :

فبالنسبة للنقطة الأولى فإن أبسط تعريف يمكن أن نذكره لواجبات المواطن الصالح هو أنها الالتزامات والمسئوليات التي تفرضها عليه مطالبه الشخصية ومطالب المجتمع الذي يعيش فيه ويستدعيها نجاحه في علاقاته وفي أداء أدواره الاجتماعية المختلفة .

ومصدر هذه الالتزامات قد تكون الحاجة الشخصية أو الروح الدينية، أو الضمير الخلقي والاجتماعي ، أو العرف الاجتماعي ، أو القوانين الوضعية السائدة في المجتمع ، أو هذه الأمور جميعاً ، كما هي الحال في كثير من الواجبات التي يتلاقى في فرضها أو الحث عليها حاجة المواطن الشخصية وتعاليم الدين ومبادىء الخلق الكريم وعرف المجتمع وتقاليده والقوانين الوضعية المطبقة فيه كواجب الحفاظ على الحياة وعلى الشرف وعلى الأسرة وعلى المال .

ومن الغايات التي تسعى إليها كل تربية صالحة هي تنمية الشعور بالواجب والمسئولية لدى المواطن وجعل هذا الشعور نابعاً أساساً من اقتناعه الداخلي لا من خوفه من عقاب أو طمعه في مغنم أو ثواب .

٢ - بعض التقسيمات الممكنة لواجبات المواطن الصالح :

ومن الممكن تقسيم واجبات المواطن والتزاماته إلى عدة تقسيمات مختلفة ، وذلك حسب الاعتبارات المختلفة التي يمكن أن تراعى في هذه التقسيمات . فمن هذه التقسيمات تقسيمها حسب الجهة الموجهة إليها إلى واجبات نحو الذات وأخرى نحو الغير ، ومن الواجبات التي تدخل تحت النوع الأول واجبات المواطن نحو الحفاظ على حياته وصحته وعقله وشرفه وكرامته وماله . ومن الواجبات التي تدخل تحت النوع الثاني هي واجبات المواطن نحو ربه ودينه ومجتمعه ووطنه وأمته . ومن الممكن تقسيمها حسب طبيعة النشاط المترتب عليها والغاية المرجوة منها إلى واجبات شخصية ، وواجبات دينية خلقية ، وواجبات اجتماعية ثقافية ، وواجبات سياسية ، وواجبات اقتصادية ، وواجبات مهنية ، وواجبات إنسانية عامة . ولما كان المواطن له عدة أدوار في مجتمعه ويتفاعل مع عدة مجالات فإنه عليه في كل دور يقوم به في المجتمع وفي مجال يتفاعل معه مجموعة من الواجبات. وتلك الأدوار التي يقوم بها المواطن في مجتمعه وهذه المجالات التي يتفاعل معها تصلح هي الأخرى أن تكون أساساً لتقسيم واجباته . فيقال مثلاً بالنسبة للأدوار واجبات الأب ، وواجبات الزوج أو الزوجة ، وواجبات المدرس أو الموظف أو العامل ، ويقال بالنسبة للمجالات التي يتفاعل معها المواطن وواجبات المواطن نحو أسرته ، وواجباته نحو قريته ، وواجباته نحو مدرسته ، وواجباته نحو مركز عمله ، وواجباته نحو مدينته ، وواجباته نحو وطنه الليبي المباشر ووطنه العربي الكبير .

إلى غير ذلك من التقسيمات الممكنة ، لواجبات المواطن ، ومن الأنواع الكثيرة للواجبات المترتبة على تلك التقسيمات . وليس من هدف هذه العجالة ذكر جميع التقسيمات الممكنة لواجبات المواطن ولا ذكر جميع الأنواع الممكنة لهذه الواجبات والواجبات الفرعية التي تدخل تحت كل نوع ، وإنما الهدف الرئيسي منها هو الاشارة والمناقشة الموجزة لأهم واجبات المواطن الليبي العربي الصالح في مجتمعه الوحدوي المتحرر بقطع النظر

عن التقسيمات والأنواع التي تنتمي إليها . وعلى كل فانه علينا أن ننظر إلى تلك التقسيمات المختلفة للواجبات على أنها تقسيمات صورية الغرض منها تسهيل مهمة الدارس والباحث ، ومن ثم فهي لا تخلو من التداخل والتشابك.

٣ ـ المبادىء التي ينبغي أن نقيم عليها فهمنا لواجبات المواطن :

وبقطع النظر عن التقسيم أو النوع التي تنتمي إليه واجبات المواطن فإنه علينا أن نراعي في فهمنا لهذه الواجبات عدة مبادىء عامة ، قد يكون من بينها المبادىء والحقائق العامة التالية :

أ) إن خير أنواع الواجبات هي الواجبات التي ينبع الشعور بها من ضمير الفرد ومن اقتناعه الداخلي لا من خوفه من عقاب خارجي أو طمعه في مغنم مادي . وهذه المرتبة من الاحساس بالواجب يمكن أن تتجلى في أظهر معانيها لدى الفرد المسلم القوي في عقيدته المتمسك بتعاليم دينه والواعي لفلسفة هذه التعاليم ولروحها الاجتماعية والانسانية وشمولها لكافة جوانب الحياة وأنواع العلاقات . فكل واجب بالنسبة لهذا المسلم سواء أكان أخروياً أو دنيوياً هو واجب ديني يجب القيام به أساساً امتثالاً لأوامر الله وابتغاء مرضاته .

ب) إن واجبات المواطن ترتبط إلى حد كبير بالمركز الاجتماعي الذي يحتله هذا المواطن في مجتمعه بحكم جنسه وسنه وترتيب ميلاده ، وحالته الاجتماعية ، ووظيفته ومهنته ، ودرجة تحصيله العلمي والثقافي ، كما ترتبط أيضاً بأدواره المختلفة التي يقوم بها المواطن في حياته الاجتماعية ، وبتوقعات الناس منه . وهذا الارتباط يعني فيما يعنى أن الفرد لا يقوم بسلوكه وتصرفاته وواجباته متحرراً من ضغوط المجتمع ورقابته ، بل هو خاضع لهذه الضغوط والرقابة ويتأثر بها في تصرفاته وأدائه لواجباته . وكثيراً ما تكتسب واجباته ومسئولياته أهميتها وخطورتها من مركزه في المجتمع .

ج (إن الاعداد للواجب من شأنه أن يسهل عملية أدائه . والتسليم بهذه الحقيقة أو المبدأ يدعونا إلى تعويد الفرد منذ نعومة أظفاره على تحمل المسئولية عن طريق الممارسة والخبرة العملية ، وإعداده جسمياً وعملياً ونفسياً لكل واجب يراد منه أداؤه ، لأنه بدون هذا الاعداد قد لا يؤديه على وجهه الأكمل . ومهمة التربية والتوعية الشعبية أن تساهم في إعداد

المواطنين لواجباتهم وتدريبهم على ممارستها أو على ممارسة ما يشابهها على الأقل . وذلك بعد تبصيرهم بها .

د (إن العلاقة التبادلية أو العلاقة المتبادلة بين الحق والواجب كما ترفض أنه لا وجود لحق بدون واجب فإنها تفرض أيضاً أنه لا واجب بدون حق .

وهذا يعني أن المواطن الذي يؤدي واجباته الاجتماعية والوطنية ينتظر أول ما ينتظر أن توفي إليه حقوقه المقابلة لهذه الواجبات . وعلى الدولة أن تساعده في الحصول على هذه الحقوق إن فشل في الحصول عليها بنفسه .

وإذا كان من حق المجتمع أن يفرض على أفراده بعض الواجبات فإن هذا الفرض يجب أن يكون له ما يبرره في المصلحة العامة والمصلحة الاجتماعية الحقة . كما يجب أن يراعى مبدأ التخفيف في هذه الواجبات وأن يقتصر فيها على ما له فائدة محققة بالنسبة للفرد والمجتمع

٤ ـ أهم واجبات المواطن الليبي الصالح :

بعد هذه اللمحة البسيطة الموجزة عن مدلول واجبات المواطن والتفسيمات الممكنة لها والمبادىء والحقائق العامة التي ينبغي مراعاتها عند محاولة فهم ودراسة هذه الواجبات فإنه يجدر بنا أن نهتم بإبراز الهدف الأساسي لهذا الفصل . وهو الاشارة والمناقشة الموجزة ـ كما قدمنا ـ لأهم واجبات المواطن الليبي الصالح في مجتمعه الليبي العربي التقدمي . ومن أبرز هذه الواجبات في نظرنا هي الواجبات التالية :

الواجب الأول :

أن يؤمن بربه ويتمسك بتعاليم دينه ويتحلى بالأخلاق الفاضلة . فقد سبق لنا في الفصل السابق أن ذكرنا صفة الايمان بالله وصفة التمسك بالدين وصفة التحلي بالأخلاق ضمن الصفات التي يجب أن يتحلى بها المواطن الصالح . وها نحن في هذا الفصل نذكرها مرة أخرى في شكل آخر مختلف بعض الشيء ضمن واجبات المواطن الصالح للاشارة من جديد إلى أن تلك الصفات هي أمور مكتسبة في مجموعها وانه يقع على المواطن الصالح واجب اكتسابها وتدعيمها وتقويتها باستمرار . فهو بهذا الاكتساب والتدعيم والتقوية يعتبر قد أدى جانباً من واجبه نحو خالقه ومصدر نعمته ونحو الدين الذي ارتضاه له ربه . وكون لديه قاعدة روحية وخلقية قوية يقيم عليها علاقاته مع ربه ومع الناس ومع كافة المخلوقات الأخرى

ويتم اكتساب هذه الصفات عادة بالمعرفة الصالحة والعلم النافع ، وبالرياضة الفكرية والروحية وبالممارسة العملية الدائمة لمقتضياتها ولجميع الصفات الفرعية المترتبة عليها .

وبطريقة أخرى أكثر وضوحاً وتفصيلاً فإنه يجب على المواطن الصالح لتحقيق هذا الواجب وتثبيت الصفات الثلاث المترتبة عليه أن يثق في الله ثقة واسعة ، ويرضى بقضائه وقدره ، ويشكره في السراء والضراء ، ويراقبه ويستشعر مخافته عند الاقدام على أي عمل من أعمال الحياة ويجتنب نواهيه ومحظوراته ، وبتمثل أوامره قولا وفعلاً ، وبذلك يحقق التقوى بجانبيها السلبي والايجابي ، كما يجب عليه أن يثق بنفسه من غير غرور ويثق في الناس وفي الحياة ، وأن يعامل الناس بخلق حسن وأن يبني لنفسه فلسفة أخلاقية توجه سلوكه وترشد تصرفاته ، وأن يحرص دائماً على أن تكون أعماله مصدقة ومطابقة لأقواله وللشعارات التي يحملها ويرددها ، وان ينأى بنفسه عن التكبر والغرور والملق والنفاق والكذب وعن التردي في سفاسف الأمور وخسائس الأعمال ، وأن يكون رائده دائماً في حياته وأعماله هو الصدق والاخلاص والنزاهة والمصلحة العامة ، إلى غير ذلك من الأعمال والأمور التي يجب على المواطن الصالح الالتزام بها والحرص على مزاولتها وتطبيقها المستمر في حياته اليومية ، وبذلك تصبح مقتضياتها والصفات المرتبطة بها عادات راسخة في النفس ، وهذا أسمى ما تسعى إليه كل تربية صالحة . ومن غير شك ان الفرد يستطيع أن يقوم بدور رئيسى وفعال في ترسيخ هذه الصفات والعادات ، وخاصة إذا ما توفرت له التربية الصالحة والتوجيه السليم .

الواجب الثاني :

أن يحافظ على صحته الجسمية والنفسية ، لأنه بدون هذه الصحة لن يكون عضواً فعالا منتجاً في مجتمعه . وبالرغم من أن الايفاء بهذا الواجب لا يقع على المواطن وحده فإن الجانب الأكبر والأول من مسئولية هذا الايفاء يجب أن يقع عليه ، ثم يأتي دور المؤسسات الصحية والاجتماعية والتربوية في المجتمع . ويستطيع المواطن أن يقوم بكثير من الأعمال التي تدخل في نطاق قدرته للايفاء بهذا الواجب الشخصي والاجتماعي في آن واحد ، حيث أن أي تقصير فيه ليس من شأنه أن يضر بمصلحة الفرد وحده ، بل يضر أيضاً بمصلحة المجتمع حيث أنه يفقده فعالية عنصر من عناصره ،

وكان من الممكن أن يساهم في زيادة إنتاجه وفي تقدمه لو كان صحيحاً في جسمه ونفسه .

ومن الأعمال التي يستطيع المواطن القيام بها في سبيل الحفاظ على صحته أن يستقيم في حياته ، وأن يحافظ على الاعتدال في كل شيء ، وأن يفي حق جسمه من الغذاء الصحي والهواء النقي والراحة والنوم والحركة والتدريب ، وأن يزيد دائماً من ثقافته الصحية ومن معرفته بأسباب المرض وطرق علاجه حيث أن المعرفة الصحية هي أولى الخطوات في بناء الاتجاهات والعادات الصحية السليمة ، وأن يحاول تطبيق معارفه الصحية والارشادات الطبية التي تعطى إليه ، وأن يؤمن بربه ويجعل قلبه عامراً بحب ربه وحب عباده ، وأن يرضى بحياته وواقعه على أن يعمل باستمرار على تحسينهما وتطويرهما وأن يتجنب كل ما من شأنه أن يضر بصحته الجسمية والنفسية كالفسق والانحلال الديني والخلقي ، والاسراف والتبذير في كل شيء ، وتعاطي الخمور والمخدرات والعقاقير الضارة بالجسم والعقل ولو على الأمد البعيد ، والاجهاد الزائد في العمل والحياة ، والكسل والخمول والاهمال في الوقاية والعلاج ، والتعرض لمثيرات الكراهية والغيرة والحقد والشك والصراع والقلق النفسيين . إلى غير ذلك من الأمور والأعمال التي يجب على المواطن الصالح القيام بها إن كانت نافعة أو تجنبها إن كانت ضارة بصحته الجسمية والنفسية .

الواجب الثالث :

أن يساهم في تنمية نفسه عقلياً وفي زيادة معارفه ومهاراته وخبراته وتوسيع ثقافته ومداركه العامة باستمرار ، حتى يستطيع أن يكون أقدر على خدمة نفسه وخدمة بلاده وأمته وعلى الاقناع والتأثير في غيره وعلى الحكم الصائب والاختيار للسليم واتخاذ القرار الحكيم المناسب في المشاكل والمواقف التي تواجهه في حياته ، وخاصة في المواقف المشحونة بالعواطف والانفعالات وهو في سبيل تحقيق هذا الواجب عليه أن يحسن استغلال الفرص التعليمية المتاحة إليه في مجتمعه ، وأن يجتهد في دراسته ويحاول التبريز فيها إن كان لا يزال في مرحلة الدراسة الرسمية ، وأن يعمل على تبناء عادة القراءة الجادة لديه ليلجأ إليها في زيادة وتجديد معارفه وخبراته وفي تثقيف نفسه حتى بعد انتهاء فترة الدراسة المدرسية ، وأن يستمر طيلة حياته ببذل الجهد في رفع مستواه العلمي والفني والثقافي ، وأن يستثمر شيئاً من دخله على

الدوام في شراء الكتب والمجلات المفيدة الّتي تمكنه من متابعة الانتاج الفكري والتطورات العلمية والأدبية والفنية ومن زيادة ثقافته الّتي بقدرها يكون عادة نجاحه وفعاليته في الحياة . وعلى المواطن الصالح أيضاً ألا يعتبر الشهادة مهما كانت درجتها والتحصيل العلمي غاية في حد ذاتها بل هما مسألتان لزيادة فعالية الفرد في خدمة نفسه وخدمة مجتمعه .وإذا فشلت الشهادة أو العلم والثقافة في تكوين شخصية الفرد وتنمية عقله وتوسيع مداركه واستقامة تفكيره وتهذيب ذوقه وعواطفه ومشاعره وأخلاقه فإنها تصبح ترفاً عقلياً لا قيمة له ولا غناء فيه .

يقول الاستاذ عبد الله ياسين سنجارى في صدد حديثه عن الثقافة والمثقف : « إن الثقافة لا تقاس بمبلغ ما يحيط به الانسان من علم ومعرفة– أياً كان مبلغها من السعة والدقة ، وإنما تقاس الثقافة بمبلغ ما يمكن أن يتركه العلم والمعرفة من أثر في عقل الانسان وعواطفه وميوله وذوقه .

إن علماء النفس يعتبرون المثقف هو ذلك الرجل الذي تكون بالعلم عقله ، واستقام تفكيره ، ونبلت مقاصده وميوله وعواطفه وسلم ذوقه حقاً . ولا يمكن أن يكون العلم ثقافة إلا إذا كان أداة لتكوين عقل ناضج وخلق رصين ، ، وروح عالية ، وضمير حي . وبهذا وحده . يصبح العلم ثقافة ، وبغير هذا يصبح عبثاً ترفاً عقلياً لا قيمة له ولا غناء فيه .

لقد أحسن العلامة « هوايتهد» حين وصف الثقافة بأنها : نشاط العقل وانفعال النفس بالجمال ، وتأثرها بالشعور الانساني ، فكل علم لا يبلغ من النفس ، ولا ينهض بالعقل والخلق والذوق لا يمت إلى الثقافة بسبب »

الواجب الرابع :

أن لمعرف قيمة الوقت في حياته وحياة أمته فلا يضيعه ولا يتركه يضيع سدى ، لأنه إن ضيعه أو فرط فيه ولم يقم له وزناً فلن يرجع إليه ثانياً ولن يجني من وراء تضييعه له إلا الخيبة والفشل .

أما إذا أحسن استغلاله وحافظ على كل لحظة من لحظاته وعمل فيه بجد وثبات فإنه يصبح ظرفاً مناسباً وأداة فعالة في تنمية مواهبه وقدراته العقلية والفنية وفي تثقيف نفسه وزيادة معارفه ومهاراته وخبراته وفي زياد دخله وتحسين وضعه الاقتصادي والاجتماعي . وإذا كانت الضرورة تقتضي تقدير الوقت بصورة عامة سواء أكان وقت عمل أو وقت فراغ فإن الضرورة لتقدير وقت الفراغ وحسن استغلاله هي أشد بالنسبة لمواطننا

الليبي الذي لا يحسن عادة استغلال أوقات فراغه في تنمية نفسه ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً . وفي بناء هوايته والتدريب اللازم لتنميتها . وفي الترويح البريء على نفسه وفي خدمة مجتمعه والمساهمة في تقدمه وتطوره .

والمواطن الليبي الصالح كما يجب عليه ان يقدر قيمة الوقت وحسن استغلاله في تنمية نفسه وتنمية مجتمعه فإنه يجب عليه أيضاً أن يقدر كل مسئولية تسند إليه ويحسن القيام بها . وأن يخلص في عمله ويؤديه بشرف وضمير ومراقبة الله تعالى . ويتفانى فيه بقطع النظر عن المعاملة التي يتلقاها من صاحب العمل وعن ظروف العمل التي تحيط به . وأن يسعى دائماً إلى تنمية مهارات العمل لديه وإلى زيادة إنتاجه وتحسين نوعيته وإتقانه وذلك باعتبار الاتقان وسيلة النجاح في العمل ، وأن يضن بوقت العمل أن يبدد في غير ما خصص له . وألا يرضى بأن يتقاضى أجراً بغير عمل جاد مثمر يقدمه في مقابله . وأن يعتبر العمل الذي يؤديه بكفاءة وإخلاص سواء أكان جسدياً أو عقلياً هو خير خدمة يقدمها لمجتمعه . حيث أنه يساهم في زيادة طاقته الانتاجية وفي تحريره من التأخر والتخلف .

فالانسان . كما يقول الدكتور حسن صعب « قد أخضع الكون الطبيعي المتحدي له وصيّره جزءاً حيّاً من تاريخه بالعمل والعقل . أي أن العامل والمفكر هما محررا الانسان من الطبيعة . وهما صانعا التاريخ الحقيقيان . وبالعامل نعني كل من عانى الجهد الجسدي سبيله إلى العيش ، سواء أكان عمله في الأرض أو المصنع أو المكتبة ، وبالمفكر نعني كل من اصطنع الجهد العقلي سبيله لمعرفة أقوم ولحياة أفضل له وللآخرين » (١) .

الواجب الخامس :

أن ينمي الروح الاجتماعية لديه وأن يجعل للغيرية ، والايثار ، والتضحية . والتراحم ، وفعل الخير ، وحب الناس ، والتسامح والتعاون ، والكرم ، وتقدير المصلحة العامة ، مكاناً يسمو على الأنانية ، والأثرة ، والعدوان ، والقسوة ، والاستغلال ، والكراهية . والحقد ،

---

(١) حسن صعب، الوعي العقائدي، بيروت : دار العلم للملايين ١٩٥٩، ص ٣٧ .

والحسد ، والتعصب ، والتنافس غير الشريف والانعزال والانفراد ، والبخل ، وتقديم المصلحة الفردية على المصلحة العامة .

فإذا نمت مثل هذه الروح الاجتماعية لدى المواطن كان أقدر على المساهمة في تقدم مجتمعه ووطنه وأمته وعلى تقديم الخدمات الاجتماعية المتنوعة المحققة لهذا التقدم . وخاصة إذا ما اقترنت لديه الروح الاجتماعية القوية بالاعداد الجسمي والعلمي والفني والثقافي المتين . والخدمة الاجتماعية التي تنبع عن الروح الاجتماعية والتي يجب على المواطن الصالح أن يقوم بها تجاه مجتمعه ووطنه وأمته تشمل في معناها الواسع كل عمل يقوم به المواطن بقصد خدمة المجتمع والوطن وتنميتها وتطويرها ثقافياً واجتماعيا واقتصادياً وسياسياً . ومن الخدمات الاجتماعية التي يمكن أن يقدمها المواطن لوطنه هي الخدمات التالية :

١ — فإذا كان المواطن طالباً في أية مرحلة من مراحل دراسته فإن خير خدمة يقدمها لنفسه ولوطنه هو اجتهاده في دراسته وتبريزه فيها لأنه بتبريزه هذا وبنجاحه في دراسته يضيف إلى مجتمعه ووطنه عنصراً واعياً مدرباً أقدر على العمل المنتج الفعال .

٢ — ويستطيع المواطن المتعلم سواء أكان طالباً أو غيره أن يقوم بكثير من الخدمات الاجتماعية الأخرى التي يمكن أن تساهم في تنمية مجتمعه ووطنه . فيستطيع أن يساهم في تطوير وإثراء ثقافة مجتمعه وتثقيف مواطنيه عن طريق كتاباته وأحاديثه ومحاضراته ومشاركاته الثقافية في الصحافة والاذاعة والمنتديات والمؤسسات الثقافية وعن طريق التأليف والترجمة إن كان قادراً على ذلك ، وعن طريق مشاركته في مشروعات مكافحة الأمية وفي مشاريع التوعية الاجتماعية والصحية والسياسية وفي غير ذلك من المشروعات والمجالات الممكنة للخدمات الاجتماعية . فكل عمل يقوم به المواطن المتعلم المثقف بقصد النهوض بمجتمعه هو خدمة اجتماعية يقدمها لمجتمعه وضريبة يؤديها عما آتاه الله من ثقافة وعلم .

٣ — ويستطيع المواطن الصالح المتحلي بالروح الاجتماعية أياً كان حظه من العلم والثقافة أن يساهم في كثير من المشروعات الأعمال الاجتماعية والخيرية الأخرى كجمع التبرعات لصالح المرضى والفقراء والمنكوبين ولصالح نصرة قضايا العدل والحرية وتدعيم راية الكفاح والجهاد ضد الظلم والعدوان ، وأعمال الجيش الشعبي والدفاع المدني

والخدمة العسكرية التطوعية . ومعسكرات العمل التطوعي وغيرها من الأعمال والمشروعات الاجتماعية .

٤ ــ وإذا ما أتيحت للمواطن فرصة الخروج من بلده فإن خير خدمة يقدمها لبلده بعد نجاحه في الغرض الشريف الذي سافر من أجله ــ أن يكون خير مثل وسفير لبلاده . يعطي الصورة المشرفة عنها ويعكس في تصرفاته الصالح من تقاليد مجتمعه .

٥ ــ والمواطن الصالح المتحلي بالروح الاجتماعية من شأنه أن يقدر الواجب والمسئولية ويخلص في عمله ويتفانى فيه بقطع النظر عن الأجر الذي يتقاضاه وعن المعاملة التي يلقاها وعن ظروف العمل التي تحيط به . وهو يعتبر تقديره للمسؤولية وإخلاصه وتفانيه في عمله وإتقانه له نوعاً من الخدمة الاجتماعية التي يساهم بها في نهضة مجتمعه . وأخذ المواطن مقابلاً عن عمله لا يخرجه عن أن يكون خدمة اجتماعية إذا ما أداه على النحو الذي ذكرنا .

هذه بعض الخدمات الاجتماعية التي يستطيع بل يجب أن يقوم بها المواطن الصالح ، ومن شأن المواطن الصالح المتشبع بروح الخدمة العامة والروح الاجتماعية أن يؤدي مثل هذه الخدمات وهو راضي النفس مطمئن البال يجد سعادة نفسية في تأديتها ، ومن ثم فإنه من واجب جميع مؤسسات المجتمع أن تساهم في تنمية هذه الروح لدى المواطنين حتى تصبح عادة متأصلة واتجاهاً راسخاً في نفوسهم . وعلى المواطن نفسه أن يلعب دوراً رئيسياً وبارزاً في اكتساب تلك الروح وفي ترويض نفسه عليها .

الواجب السادس :

أن ينمّي الشعور الوطني والقومي لديه ويزيد من وعيه السياسي . ففي الوقت الذي عليه أن يحب وطنه ويهتم بشؤونه ويساهم مع غيره من المواطنين في إصلاح أحواله السياسية ويشارك بإخلاص وفعالية في حياته السياسية ، فإن عليه في الوقت نفسه أن يحب أمته العربية ، ويشعر نحوها بارتباط عاطفي متين ، ويهتم بمشاكلها وقضاياها المصيرية ، ويساهم مع غيره من أبناء وطنه وأمته في تحقيق الوحدة العربية الشاملة وفي بناء الوطن العربي الكبير الموحد ، وأن يوسع وعيه القومي وثقافته القومية ، ويعرف العناصر الحقيقية المكونة للقومية العربية والداعية للوحدة العربية ، ويدرك أن النزعة القومية لا تعني التعصب للجنس العربي والاعتقاد بسموه وتعاليه ،

بل تعني حب أمته العربية وشعوره بارتباط باطني نحوها . كما عليه أن يعرف بعمق الصلة بين العربية والاسلام اللذين ليسا متنافيين ولا متباينين بل هما وثيقا الصلة . فالذي أظهر العرب وصنع حضارتهم وأعطاها روحاً ودفعاً لم يكن لها من قبل هو الاسلام ، وليس بخاف مدى ما أسهم به الدين الاسلامي بالذات في تكوين مفاهيم وقيم مشتركة لمجتمع عربي متميّز ، بل ولقد نشات الحضارة العربية مرتبطة أشد ما يكون بالدين الاسلامي ، إلى درجة صح معها وصف الحضارة العربية بالحضارة الاسلامية . وهذه المفاهيم والقيم المشتركة مع الحضارة الاسلامية ليست البتة قاصرة على المسلمين دون ما عداهم من أبناء الأمة العربية ، وإنما هي من خصائص المجتمع العربي بعناصره البشرية جميعاً دون تمييز بين عربي وعربي بسبب الدين »» .

ومن مستلزمات وعي المواطن السياسي أن يعرف طبيعة الحركة الصهيونية وأهدافها وغاياتها والنزعات الشريرة المتأصلة فيها وأساليبها في تحقيق أهدافها والطرق التي اتبعتها والظروف التي استغلتها في الحصول على وطن قومي لليهود وفي التمهيد لقيام الكيان الاسرائيلي .

ومن مستلزمات هذا الوعي السياسي أيضاً أن يعرف الصلة الوثيقة والرابطة العضوية بين الصهيونية وإسرائيل وبين الاستعمار والامبريالية العالمية وأن يعرف الأساليب التي تتبعها إسرائيل في توطيد كيانها في الداخل والخارج وأن يعرف ما ترتب على وجود إسرائيل من مخالفات قانونية وأخلاقية ، وأن يعرف التضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني في سبيل مقاومة العدوان الصهيوني ومقتضيات المجابهة العربية الاسرائيلية في أبعادها الفلسطينية والعربية والدولية .

هذه هي أهم واجبات المواطن الصالح نحو روحه وجسمه وعقله ومجتمعه ووطنه وأمته العربية وقضية أمته الأولى وهي القضية الفلسطينية . ومن واجب المؤسسات القائمة في المجتمع أن تساهم في تنمية الشعور والاحساس بهذه الواجبات لدى المواطن وأن تتيح له فرص ممارستها منذ طفولته الأولى حتى يتعود على حملها منذ الصغر ولا يجد مشقة في الايفاء بها . ويأتي في مقدمة هذه المؤسسات المؤسسات التربوية التي أنشئت خصيصاً لتربية المواطنين وتنمية شخصياتهم وإعدادهم للأدوار والواجبات الملقاة على عاتقهم كمواطنين صالحين .

كلمات في الأدب

هتلر .. وفلسفة العنف

العنف مع اليهود ..

بقلم : الصيد أبو ديب

كثيراً ما كانت الفلسفة محور عدة علوم ومعارف مختلفة ... فالنظريات العلمية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية مبنية في أغلب الأحيان على أفكار وآراء فلسفية مما حذى ببعض المفكرين والباحثين إلى اعتبار أن الفلسفة ولعدة قرون هي أم العلوم والمعارف . فقد كانت تغذي الأدب والفن والتاريخ والاقتصاد والاجتماع . بل والسياسة بتأملات الفلاسفة ونظرات الحكماء وفلسفتهم في الحياة والكون

ففي التاريخ مثلاً نجد الكثير من الأحداث والوقائع التاريخية التي تشكل علامة واضحة مميزة في تاريخ الأمم والشعوب . كانت في الأصل فكرة فلسفية في ذهن مفكر أو فيلسوف آمن بها أصحاب السلطة فعملوا على تطبيقها في حياتهم وجعلوها

موضع تنفيذ وتحقيق والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة ومتباينة .

مواقف هتلر التاريخية التي اتسمت بالقسوة والعنف – على سبيل المثال – كانت في الأصل – رأياً فلسفياً آمن به هتلر في بداية حياته وعمل على تطبيقه عندما أمسك بزمام الحكم وتربع على عرش السلطة ، فقد كان عنيفاً في حروبه ومعاركه قاسياً في معاملته للشعوب التي غزاها شديداً في حسابه مع من يتعاملون معه . متجبراً في عقابه عنيداً فظيعاً في قصاصه . لا يعرف للأخلاق موضعاً في السياسة وليس له في السياسة أخلاق لأنهما في نظره شيئان متناقضان لا يجتمعان بأي حال من الأحوال . .

وهذه الظاهرة الواضحة الجلية التي تبدو في كثير من مواقف هتلر التاريخية والعسكرية مردها إلى فكرة فلسفيةميكيافيلية ترى أن لا أخلاق في السياسة لأنها نقيضتها – لقد كانت لميكيافيللي في فن السياسة فلسفة تتلخص كما يقول الأستاذ أحمد بهاء الدين « في جملة واحدة هي أن « لا أخلاق في السياسة » وان السياسي يجب أن لا يرعى في سبيل تحقيق غايته أي اعتبار آخر وأن مصلحة الدولة العليا تعفى من كل قيد أو التزام ، أي ان العلاقات بين الدول لا يجب أن يحكمها قانون أياً كان . . وقد آمن بهذه الفلسفة في الزمان الحديث في أوروبا فلاسفة يدينون بها مثل (ترتيشكه) وساسة يطبقونها مثل (هتلر) و (موسوليني) ، وهي في الواقع فلسفة كل عدوان . »

وقد تمكن هتلر من تطبيق هذه الفلسفة على أكمل وجه بفضل قوة شخصيته وعظمته العسكرية أمام جنوده ، وأبرز دليل على هذا أن جل جنوده وقواته كانوا يدركون في أواخر أيامه أنه يسير بهم في طريق منحرف مهلك محفوف بالمخاطر والمطبات ومع ذلك لم ينبس أحد ببنت شفة أو يعترض أو يستطيع الوقوف في وجهه معترضاً أو على الأقل يشير إليه ولو في إيماءة خاطفة خطأ مسيرته وإنما اكتفوا بالتذمر بين أنفسهم والسخط عليه في داخلهم ووصفه في غيابه بأنه ديكتاتور أحمق لا يعي ما يفعل وهو ما يلمسه القارىء في كثير من الكتب التي تتعرض للنازية بصفة عامة ولمذكرات وآراء قادتها الكبار الذين عرفوا هتلر عن قرب .

وإذا حاولنا أن نتلمس مواضع هذه النظرة الفلسفية في مواقف هتلر التاريخية سنجدها كأوضح ما تكون في مواقفه مع اليهود ، إذ كان يرى – فيما يبدو – أن

أنجع سياسة وأحكمها يمكن أن تنفع مع هذه الشرذمة هي السياسة الميكيافيلية المبنيه على فلسفة أن لا أخلاق في السياسة .

لقد عرف عن هتلر أنه كان يكره اليهود كراهية شديدة لا حدود لها وينقم على هذا الجنس من أعماقه لأنه جنس في نظره لا يستحق الحياة ، وقد ظلت هذه الكراهية المقيتة لليهود راسخة ثابتة في أعماق نفسيته لم تضعف بل كانت تشتد وتقوى بمرور الأيام حتى أن مسألة اضطهاده لليهود وأعماله الوحشية التي أخذهم بها في أواخر حياته أصبحت مثلاً للعنف والقسوة يضرب به في التاريخ . خاصة جرائمه التي اقترفها معهم عام ١٩٤٠ م .. تلك الجرائم التي صارت فيما بعد نقمة على ألمانيا الحديثة تحمل أعباءها الجيل الألماني الجديد في صورة تعويضات مالية ضخمة أرهقت خزينة الدولة والشعب الألماني .

لم يعرف هتلر مع اليهود مكاناً في قلبه للرحمة والشفقة . وإنما العنف والقسوة والشدة في معاملاته لهم . فقد أصدر أمراً بمنع أطفال اليهود من الالتحاق بالمدارس الألمانية لأنهم غير أهل لها كما أصدر أمراً آخر بمنع اليهود من الحصول على الجنسية الألمانية لأنهم غير جديرين بها . وهل يعقل أن يتساوى اليهودي بالألماني في الحقوق الدستورية والقانونية ويتمتع معه بكل ما ينعم به من خيرات ألمانيا العظمى ؟ إن ذلك من الأمور المستحيلة في نظر هتلر ولا يجب أن يحدث بأي حال من الأحوال وهو على قيد الحياة .

وإمعاناً في تعميق هذا الموقف الذي وقفه هتلر من اليهود أصدر أمراً بمنع بيع الأراضي لليهود وحرم عليهم البناء أو العمل إلا بإذن خاص لأنهم قوم منحطون لا يستحقون أن يعيشوا كباقي البشر .. وقد بقيت هذه الأوامر القاسية في أذهان الامريكيين بحكم مساندتهم المعروفة لليهود والوقوف إلى جانبهم ومساعداتهم المستمرة حتى جاءت الفرصة التي حاكم فيها الأمريكيون قادة الألمان من أجل تلك الأوامر في مدينة « نورنبرج » بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية .

كان منطق هتلر في اعتقال اليهود بعد حملة كبيرة شنها من أجل ذلك هو اعتبار كل يهودي مقيم بألمانيا جاسوساً لوطنه **الأم** لأنه لا يثق بالجنس اليهودي ولا يطمئن إلى مسالمته المزيفة وهدوئه المتصبغ الذي يسبق العاصفة . وقد قال بالحرف الواحد في هذا الصدد : « أنا لا

أستطيع أن أذهب للدفاع عن ألمانيا ضد رأس المال اليهودي وأتركه يغتالني من الخلف » .

ولهذا السبب أصدر هتلر أمراً أصبح بمقتضاه كل يهودي مقيم في ألمانيا سواء كانت لديه الجنسية الألمانية أم لا عدواً للأمة الألمانية وجاسوساً لوطنه مما يستوجب وضعه تحت رقابة فعالة صارمة في معسكرات الاعتقال . وقد بدأت حملة التطهير هذه عندما نقل الجيش الألماني العديد من العائلات اليهودية إلى المعسكرات المحاطة بالأسلاك الشائكة ، وقد أعطى لكل عائلة وقتاً مقداره ٤٨ ساعة لكي تستعدّ للرحيل ومغادرة البلاد الألمانية ، كما صدرت أوامر لهذه العائلات بألا تحمل معها شيئاً غير ملابسها أو متاعها الخاص ويترك الباقي ملكاً للدولة . . ومن أجل هذه الأوامر أيضاً عقد الامريكيون محاكمات «نورنبرج» بعد ثلاث سنوات لمجموعة من المسئولين الألمان .

وفي معسكرات الاعتقال المذكورة أصدر هتلر منشورات تدعو الرجال من اليهود إلى التطوع في الجيش النازي للقتال من أجل ألمانيا وكانت تخير الرجال بين الموت في المعسكرات وبين الذهاب إلى ساحة القتال وميدان الحرب . . وهذا يذكرنا بما فعلته أمريكا مع اليابانيين المقيمين بها عام ١٩٤٢ م أيام الرئيس (روزفلت) حينما نشبت الحرب بين امريكا واليابان . . فقد فعلت مثل ما فعله هتلر مع اليهود . بيد أن الفرق الوحيد الذي يشير إليه المؤرخون في هذا الصدد أن يهود هتلر كانوا ألماناً يقاتلون من أجل ألمانيا في حين أن اليابانيين كانوا يقاتلون ضد وطنهم الأم من جراء الضغط الامريكي وإجبارهم بالقسوة والعنف على ذلك وهو فرق شاسع وبيّن .

والخلاصة أن تلك المواقف القاسية العنيفة التي وقفها هتلر مع اليهود لم تأت اعتباطاً أو لمجرد أن يقفها بدون دوافع وأسباب وإنما هي نتيجة فلسفة معينة آمن بها هتلر ورأى أن يقفها مع هذا الجنس حمل له فى نفسه كراهية ومقتاً شديدين منذ فترات شبابه الأولى ، فهل التاريخ يعيد نفسه ونحن نرى المواقف القاسية والجرائم الوحشية والأعمال العنيفة التي ترتكبها الفاشية الاسرائيلية مع عرب فلسطين وجموع اللاجئين في الأراضي المحتلة .

قصة قصيرة

الرتيلة

كتبها : علي ابوزقية



أحتار الفتى في أمره ، لم تسعفه حصيلته المحدودة من تجارب الحياة . كان عليه أن يواجه مصيره بنفسه وهو لم يجاوز الثانية عشرة من عمره . . لقد ألقت عليه الحياة بمسئولياتها جزافاً دون أن ترحمه أو ترأف به . . تركه والده يتيما عندما توفي أثناء عمله في حادث غطس بالميناء ، فمات مكتوماً . . وبذلك خسرته أسرته إلى الأبد . كان على ابنه بشير حينئذ أن يترك تعليمه بالمدرسة ويتقلد مسئولية إعالة والدته وأخته الصغيرة ، وإلا واجهوا الضياع والتشرد ، بل ربما التمرغ في الوحل والتعرض لألسنة الناس الحداد التي لا ترحم كما جرى لزوجة جارهم محمود عامل البناء الذي وقع

من فوق « الصقاله » بعمارة المكرود في المدينة . فدفعتها الحاجة إلى فتح بيتها لخياطة الملابس لتعول أولادها . وبذلك تعرضت سمعتها لكلام كثير !

كان يذهب كل يوم من قريته إلى المدينة ليساعد الحلاق الايطالي من الصباح حتى المساء مقابل عشرة قروش يشتري بها ما يمكن شراؤه من قوتهم اليومي البسيط المؤلف غالباً من النشويات مع قليل من الزيت وكثير من الفلفل . حتى إذا كان يوم الأحد الذي يعطل فيه الإيطالي فإن على أمه أن تبحث عن قوتهم في ذلك اليوم . فتتركه مع أخته الصغيرة في البيت بعد صراع طويل معه لتذهب إلى أحد البيوت الموسرة علها تساعد إحدى رباته في شئونها المنزلية وتحصل منها مقابل ذلك على ما يسد رمقها ويسكت معركة الجوع في أحشاء طفليها .

كان بشير يتزايد ضيقه كل يوم أحد بهذا الخروج . ويتخوف أن تتعرض سمعتهم للسقوط وتصبح مضغة في أفواه الناس وعلى أعتاب دكاكين الشاي بالقرية مثلما حصل لعائلة جارهم محمود عامل البناء .

لقد بحث أكثر من مرة عن عمل له يوم الأحد . ولكن دون جدوى . حاول تغيير عمله من الايطالي بأي عمل آخر يشغله جميع أيام الأسبوع . اتصل بالحاج ابراهيم العجوز صاحب الدكان الكبير المجاور لبيتهم وعرض عليه مشكلته فرحب به . وقبل أن يشغله معه طيلة أيام الأسبوع .

ولكن مقابل سبعة قروش فقط في اليوم مبرراً ذلك بأنه سيعمل مع مسلم بدلا من عمله مع كافر . كما سيوفر عليه التعب إلى المدينة ، مما جعل بشير ينأى عن عرضه البخس تاركاً علاج وضعه المقيت للمستقبل ولكن الحيرة لم تطل به ، إذ خطر له ذات يوم شيء لم يكن في حسبانه . تذكر أن والده قد غرس لهم شجرة تين في طرف القرية قبل موته وهو ينتظر أن تثمر هذا العام . وما دام هذا إبان موسم التين . فقد قرر بشير بينه وبين نفسه أن يذهب لجنيها فيحصل منها على ما يسد حاجتهم يوم ذلك الأحد حيث أجهد يومئذ نفسه أيما إجهاد لإقناع والدته بأن لا تغادر المنزل كما هي عادتها كل يوم أحد .

وهكذا وجد بشير نفسه وجهاً لوجه أمام الكارثة !

لقد ارتبكت أوصاله . وتوقف هيكله الصغير عن النبض . وتركز نظره كالمعتوه على الهول الذي فاجأه ... احتار ماذا يفعل . هل يترك الشجرة بما فيها وينفذ بجلده بعيداً . ولكنه فكر في الأمر . لقد منع والدته من الخروج هذا اليوم وتركها تنتظره مع أخته الصغيرة والجوع يعتصرهما . فأخذ التردد يمزقه والخوف والحاجة وكلام الناس يسمر أقدامه .. أقنع نفسه بوجوب مواجهة الموقف بشجاعة .. ودون تردد . رغم أنه لا يزال يذكر مشهد جارتهم جازية الجميلة عندما تورم جسمها وأصبحت تهدر كالجمل الهائج . وداخ زوجها وأهل

القرية معد في علاجها بالحضارى والعزايم وزيارة الأولياء دونما فائدة ، لولا أنهم لجأوا بها في النهاية إلى المستشفى بعد أن يئسوا من أمرها ، فانقذت حياتها في آخر لحظة ، إلا أن بشرتها تغيرت تماماً وأصبح لونها أصفر فاقعاً ورؤيته لا تطاق بعد أن كانت شابة ساحرة تذكرها جميع شوارع القرية وشبابها .

كل ذلك مر بذهن بشير في لحظات خاطفة ، ومع ذلك ازداد احساسه بالمسئولية عمقاً ، وصمم على مواجهة تلك الرتيلة الخطيرة التي تهيمن على شجرة التين أمامه وتمتد شباكها الأخطبوطية من حولها على الشجرة بكاملها وهي تتربع في وسطها عند فتحة كبيرة بين الأغصان تحيط بها مجموعات هائلة من البيض والحشرات المجففة ، وأخرى في دور الاحتضار لم تسلم الروح بعد . وتنتشر مخالبها في جميع الاتجاهات تتحرك في جشع متوحش هنا وهناك متحفزة بكل ما يمكن أن تطوله أو تتلقفه شباكها ، لقد كانت رهيبة فعلاً ، حتى ضحاياها بمنظرها البشع كانت تشعرك بالتقزز رغم أنها ميتة أو في دور الاحتضار .

تساءل بشير في نفسه مستغرباً كيف تركت هذه المصيبة ، فهو على الرغم من تعرضه أكثر من مرة للسع العقارب واصطدامه بثعابين البيئة وأفاعيها ورتاتيلها لم يشهد في حياته ضاوتها المهونة ولا بشاعة منظرها لقد ارتاع لرؤيتها وخاف أن تنقض عليه إذا ما هاجمها ، وتفرغ فيه كل السموم التي اختزنتها في بطنها المتورم (كبلونة) وشيكة الانفجار . فألقى بنظرة أخرى حوله وهو يعاني من ذلك التهديد الأخطبوطي الذي يتحداه حيث لاحظ غير بعيد منه كومة من الحجارة تكاد تغطيها الرمال . فارتمى عليها بكل عواطفه ليملأ منها يديه وأخذ يهاجم بعنف تلك الرتيلة المتوحشة التي بدأت تتحرك خلال شباكها كالأسد الهائج المحاصر في القفص ، محاولة أن تنقض على كل ما حولها . ومع ذلك واصل بشير الهجوم عليها بالحجارة رغم أن الخوف كان يمزقه حتى لاحظ فجأة أن الرتيلة اختفت من مكانها ولم يعد يراها أمامه ، فصعق لذلك وأحس بالكارثة ، وألقى بنظرة مجنونة على الأرض شاعراً أن الخطر قد أحدق به لا محالة . وفي صراعه مع هذه العواطف الهائجة بداخله ومع نظره عليها وقد أصابتها إحدى الحجرات فعلاً ، وألقت بها بين فروع شجرة التين السفلى فتمزقت بطنها المتورمة واختلطت سمومها السوداء بالرمال . . . وحينئذ لحقها بشير على الفور بحجر آخر طحن به ما تبقى في رأسها من شر . ثم تنفس الصعداء وألقى بجسمه في ظل الشجرة مستسلماً لسعادة لا حد لها بدأت تغمر مشاعره .



«حياء العذراء» . تمثال للفنان برتولوميو
فويدوبونو (١٦٥٤ — ١٧٠٩) .

طبعت بمطابع الجمهورية العربية الليبية / طرابلس